الجنة... والفقراء

د/ سمير عباس

اسم الكتاب: الجنة... والفقراء

المـــــؤلف: دكتور/ سمير عباس

الناشـــــر: مكتبة بورصة الكتب للنشر والتوزيع

لوحة الغـلاف: للفنان العالمي / فان جوخ

تصميم الغـلاف: محمد فـــاروق

التجهيزات الفنية: حسام أنيس

٢٥ شارع شريف- القاهرة
Email: adel.metwaly69@yahoo.com
٠٢/٢٣٩٢٠٣٦٩ -٠١٠٠١٨٨٩٣٦٣

رقم الإيداع : ١٦٣٢٦ /٢٠١٣
الترقيم الدولي: ٥ ـ ٥١ ـ٥٠١٦ـ٩٧٧ـ٩٧٨

عباس، سمير.
لفقراء: رواية / سمير عباس- ط١.- القاهرة: بورصة الكتب للنشر
زيع، ٢٠١٣ .
٢٤٤ص؛ ٢٠سم.
تدمك: ٥- ٥١ -٥٠١٦-٩٧٧-٩٧٨
١- القصص العربية.
أ- العنوان.

الجنة . . . والفقراء

دكتور

سمير عباس

٢٠١٣م

. . . انهض فلن تفنى . . .

يا من تمضي . . . ستعود . .

يا من تنام . . . ستصحو . .

يا من تموت . . . ستبعث . . .

من "كتاب الموتى"

حين لمحت على وجهي علامات التردد وأنا أقف على باب الغرفة وقد أمسكت طرف الباب بيدي ، أمرتني بلهجة حازمة بالدخول وإغلاق الباب ، فهي رئيستي في العمل وبالتالي لم يكن في استطاعتي إلا أن أطيع مادام الأمر لم يتعد حدود العلاقة بين عامل ورئيسه ، كان وجهي يحمل من علامات الخوف والرهبة ما عبرت عنه ارتعاشة يدي وهي تمسك بمقبض الباب لتغلقه ، وجدتني وهي وحيدين وقد أُغْلِقَ علينا باب واحد .

توقعت في البداية أنها ترغب في تأنيبي على انفراد بسبب تقصيري في تنظيف أرضية الحمام التي كنت قد انتهيت لتوي من تلميعها ، ولكن وَجَدْتُهَا بعد أن ألقت نظرة سريعة على كل شيء ، تجلس على طرف السرير الأنيق الذي يتوسط الغرفة وقد وضعت ساقاً فوق الأخرى ، ثم راحت تحدق داخل عيناي وساقاها المكشوفتان جعلتا ما يشبه تياراً كهربائياً يسري في أوصالي. شعرت بجفاف يُداهم حلقي وأنا أقف وقد احتواني إحساس بالتبلد والبلاهة، ولكنها حين ابتسمت أضاءت أمامي الجزء الأكبر من أبعاد اللحظة التي أواجهها. أحسست بنداء أخرس يلوح خلف

ابتسامتها فلم أجد لدىَّ سوى ابتسامة غبية انفرجت عنها شفتاي دون أن أبرح مكاني خلف باب الغرفة الذي أغلقته من لحظات.

قالت وهي تشير بكل شيء فيها نحو الفراش الذي تجلس فوقه :

- مريح، أليس كذلك ؟

أومأت برأسي موافقاً ، فأضافت :

- ألم تحلم بأن تقضي لحظات على هذا الفراش مع امرأة حلوة ؟

ابتسمت من جديد وبطريقة تشي بالسخرية من نفسي ، وتشعرها بسخافة السؤال، ثم أجبت وعيناي تنظران نحو الأفق المترامي عبر النافذة الواقعة في مواجهتي:

- كثيراً ما يحلم المرء ، ولكن ليس بالضرورة أن يقتصر الحلم على مجرد قضاء وقت مع امرأة حلوة في فراش مريح ....

قالت بدلال:

- عيناك تناقضان ما تقول. تبدو رائعًا حتى وأنت تتغابى أو تدعى البراءة.

حاولت أن أبدو قوياً وحازماً حين قلت :

- سيدتي ، لنعود إلى ما أردت مني فلم يزل أمامي الطابق بأكمله أود أن أنتهي من تنظيفه قبل منتصف النهار. هل لديك ملاحظات على نظافة الغرفة هذا الصباح ؟

رمقتني بنظرة أجبرتني أن أفهم كل شيء، ثم تململت في جلستها لتكشف لي عن جزء أكبر من ساقيها وهي تقول وقد راحت تنزع معطفها الأبيض والذي كانت ترتديه فوق ملابس تكشف مفاتن جسدها المتناسق:

- أشعر بحرارتي تصل إلى الغليان، لا أدري هل هي حرارة الجو، أم حرارة جسدي. قالتها بطريقة أقرب إلى التأوه ، ثم أردفت :
- تعالَ ، ما لك جامد هكذا خلف الباب ؟

ترددت على لساني همهمات ضجر لم تتبين كنهها ، فابتسمت من جديد وهي تضيف :

- افتح هذه الثلاجة واحضر منها ما سأطلبه منك ، وتعال هنا قريباً مني .

نظرت إليها بتبلد واضح وأنا أسمعها تضيف :

- مهما حاولت ، عيناك تحملان سحراً لا يمكن أن يكون غبياً . متى تتوقف عن تمثيل دور الساذج الذي لا يفهم إشارات امرأة....؟

ثم سمعتها تضيف بصوت خافت:

- أردتك لي منذ البداية، ولكنك تتظاهر بالغباء وجمود المشاعر...رغم أني أحس بك تتمناني وتريدني بكل ذرة في كيانك....

اتجهت بخطوات مترددة نحو الثلاجة الصغيرة القابعة في أحد أركان الغرفة وحين فتحتها بحذر ، وجدت الكثير من المشروبات التي توضع في الثلاجة الصغيرة لينتقى منها الضيف ما يشاء. أشارت بأصبعها إلى زجاجتين صغيرتين ، إحداهما استطعت أن أتعرف على ما تحتويه من نوع الخمر، أما الثانية، فقد كانت مغلفة بورقة كتب عليها بلغة لا أعرفها فلم أستطيع التعرف على ما بداخلها، أخرجت الزجاجتين وحملتهما إليها حيث تجلس. كانت تراقبني بنظرات يملؤها شبق امرأة عطشى إلى أحضان رجل، ولكنى لم أكن لأتأكد من شيء في تلك اللحظات المباغتة، وحين رأتني أتصرف بطريقة يغلفها التردد والخوف مع رهبة المفاجأة التي عكستها تصرفاتي الأقرب إلى البله، أشارت إلى بالاقتراب أكثر، ثم نهضت من حيث تجلس لتمضى بخطوات متثاقلة وتقف أمام المرآة ، بدت خطواتها الأنثوية المثيرة وكأنها تتحدى نوازع العفة في

رجولتي، لم يكن أمامي سوى أداء حركات إليه ووفق ما تأمرني به، فها هي المرة الأولى التي أشعر فيها بإرادتي وكأنها تسلب منى شيئا فشيئاً، رحت أعيش المشهد وكأني مستسلم لخدر يتسرب إلى أحاسيسي ورغباتي المضطربة والمتناقضة. قالت وهي تنظر إلى جسدها في مرآة الغرفة حيث تقف:

- منذ زمن طويل، لم أشعر بحاجتي لأن أرى جسدي وقد تحرر من هذه السواتر النسيجية، .. لا أدري لماذا أوحى لي وجودي معك في الغرفة برغبة عارمة كنت قد نسيتها، "أن أقف أمام المرآة بملابسي- الداخلية فقط وقد تحرر هذا الجمال التعس من كل ما يحجب مفاتنه عن زجاج المرآة" ... ثم أردفت وكأنها تتحدث إلى نفسها :

أراقبك منذ أتيت إلى هنا، أعجبتني وسامتك وهذا السحر الحزين الذي يطل من عينيك. كثيرا ما حاولت الاقتراب منك، ولكنى دائما كنت أتراجع في اللحظة الأخيرة. اليوم جئت إليك وقد تملكتني رغبة لم استطع مقاومتها في أن أكون معك هنا وقد أغلق علينا باب الغرفة. اجلس أنت واخلط كميات متساوية من الزجاجتين في الكوبين الموضوعين على المنضدة المجاورة للسرير ،

أما أنا فدعني أتأمل في حضورك تفاصيل هذا الجسد المتعطش للمسة رجل.

جلست على طرف السرير واجماً وأنا أرى أمامي شعلة من نار شيطانية توشك أن تعصف بما تبقى لدي من قدرة على المقاومة، رحت أراقبها وأنا أتململ من الداخل، كانت تنزع ما تبقى من ملابسها بنعومة وتأن وهي تتلذذ بمراقبة انفعالاتي من خلال المرآة، وحين وقفت أمامي شبه عارية إلا من غلالات رقيقة جعلت مفاتن جسدها المتورد تبدو أكثر إثارة وجمالا، وكأنها تدعوني بأصرار، رحت أنظر إلى أرضية الغرفة التي سال عرقي فوقها من لحظات وأنا أنظفها تمهيداً لاستقبال النزيل القادم ، مرت لحظات وأنا أحملق نحو لا شيء وإن كنت قد تظاهرت بمتابعة سحابة تقطع الأفق من الناحية المقابلة لنافذة الغرفة .

اقتربت مني وهي تتوسط المسافة بيني وبين المرآة الواقعة في مواجهة الفراش ثم همست :

- لماذا لم تُبْدِ رأيك ؟ ألم تشعر حتى الآن بحاجتي إلى سماع كلمتك بعد كل الذي رويته لك ؟ ثم قبل أن أجيب بكلمة

واحدة ، كانت قد نظرت إلى الكوبين اللَذَيْنِ مازالا فارغين على المنضدة الملاصقة للسرير ، فارتفع صوتها قليلاً وهي تقول :

- لماذا تتحدى نفسك ، وتتركني أتآكل ؟

رمقتها بنظرة حادة وكأني أدعوها للعودة إلى صوابها ، ثم نهضت من مكاني واضعاً يداي في جَيْبَي سروالي الذي أرتديه ، ورحت أدور حول نفسي- في الغرفة دون أن أنظر إليها ، كانت أمامي كتلة من جمر مشتعل ، لذيذة في توهجها ، صرخاتها الصامتة توحي بمقدار السعادة التي يمكن أن تغلف الخطيئة في أحضانها ....

مرت لحظات وأنا أدور حولها وحول نفسي- ، اكتشفت أنها غبية رغم الفتنة التي تصرخ من كل مفصل في جسدها ، لماذا تتركني مع نفسي لأفكر في شيء بعيد عنها في حين انتصبت جامدة أمام المرآة بعد أن نطقت بكلمتها الأخيرة ، لماذا لم تدرك أن الرجل حين ينشغل بما هو أبعد من جسد المرأة التي أمامه يتلاشى سلطانها عليه ؟ كانت غبية حين أيقظت الوثن القابع في الأعماق ثم تركته في منتصف الطريق ....

اتجهتُ بخطواتي صوب الباب المغلق ، وقبل أن تمتد يدي إلى المقبض المعدني لتفتحه، رأيتها تنهار فوق الفراش، وجسدها المهزوم ينتفض بعنف شيطاني، أما دموعها التي تدفقت بغزارة في تلك اللحظات، فقد أوشكت أن تعيدني إلى أسر نداء أنوثتها الذي تخلصت لتوي من كيد إغرائه، فآثرت أن أغادر الغرفة صافقاً الباب ورائي بعد أن قلت متظاهرًا بعدم الاهتمام :

- سوف نلتقي بعد أن يعود إليك هدوؤك ، ونتحدث في كل شيء .....

خرجتُ إلى الممر الطويل وعلى شفتي ابتسامة لن أنسى دوافعها ، وقفت حائراً للحظات ، لا أدري ماذا أفعل ، فلم تعد لدي الرغبة في مواصلة العمل وتنظيف باقي غرف الطابق الذي أتولى مسئولية تنظيفه كل يوم ، رحت أسير بخطوات هائمة نحو الغرفة الأخيرة التي تقع في مواجهة المصعد وإذا بخطواتي تلقي بي إلى داخله ؛ لأجد نفسي بعد لحظات وقد امتدت يدي لتطرق باب غرفة مدير شئون العاملين. أذن لي الرجل بالدخول ، كنت حتى هذه اللحظة لم أحدد ما أريده بالضبط . وقفت أمامه وقد احتواني

إحساس بالنشوة مع شعور عميق بالاشمئزاز . وحين سألني عما أريد ، أخبرته أنني أرغب في الراحة لمدة يومين حتى أستريح من إحباط مفاجئ يمكن أن يؤثر على نشاطي في العمل إذا لم أبحث له عن علاج سريع . ابتسم وهو يردد :- إحباط مفاجئ ؟!

قالها وهو يحدق في ملابسي التي تحمل الإشارة الخاصة بعمال تنظيف الفندق . استطعت أن أكتشف ما يكمن خلف نظرته الفاحصة ، ثم قلت لنفسي ، لعله لم يسبق له أن سمع هذه الكلمة من أحد العمال ، فهم دائماً ليس لديهم الوقت الذي يبحثون خلاله عن مسميات لما يشعرون به من آلام ، تأكد لي صدق حدسي حين استطرد الرجل وكأنه يود أن يسمع مني أكثر :

- ها ، وما سبب هذا الإحباط المفاجئ ؟

كنت في حالة من الضجر لا تسمح لي بأن أسايره في الحديث ، فآثرتُ أن أشعره بذلك ، بطريقة لا تغير من الانطباع الذي وقر لديه تجاهي . قلت وأنا أنظر داخل عينيه باستعطاف واضح :

- سيادة المدير ، أنا مرهق وأود أن أستريح . أرجو أن تسمح لي .

كان ذكياً ، وفهم ما أردته بجملتي الأخيرة ، فعاودته ابتسامته

التي لم تكن ساخرة هذه المرة، وقال وهو يشير بيده إلى غرفة ملحقة بغرفة مكتبه : اذهب إلى إحدى الزميلات لتساعدك .

استدرت إلى حيث أشار . وبعد أن طرقت الباب . فتحته بهدوء ودلفتُ إلى الداخل حيث وجدت ثلاث فتيات . اثنتان مشغولتان بالكتابة علي آلتين عتيقتين من الآلات الكاتبة، أما الثالثة: فوجدت أمامها إحدي المجلات المعروفة والمتخصصة في قضايا المرأة والحب. وقفت أمامها. وحين رفعت عينيها من على المجلة التي أمامها، دون أن تنطق ، فهمت من نظرتها الحادة أنها تسألني عما أريد.بادرتها بالقول:

- المدير هو الذي أمرني بالحضور إلى هنا .

قلت ذلك لأتفادى ما لا تُحمَدُ عقباه، خاصة وأن لفظ " المدير " أمام الموظف يعني أشياء كثيرة . ثم أضفت اعتذاري لها عما أكون قد سببته لها من إزعاج. تغيرت سحنتها بعد أن بددت كلماتي سحابة الانفعال الطارئة .

واصلت حديثي عبر ابتسامة حاولت تصنعها قدر المستطاع، أخبرتها عن السبب الذي من أجله أشار عليَّ " المدير "، بضرورة الحضور إلى واحدة من الثلاث : هي أو إحدى زميلتيها.

أخرجتْ من أحد أدراج المكتب الذي تجلس إليه ورقة معدة خصيصاً لغرض طلب الإجازة الاعتيادية للعاملين . وقبل أن تبدأ في ملء حقولها نيابة عني، سألتني عما إذا كان رئيسي المباشر ليس لديه اعتراض. وجمت للحظة ، ثم قلت مشيراً إلى الإشارة الخاصة بعمال النظافة والملصقة علي الجيب الأعلى للسترة التي ارتديها :

- بالطبع تعرفين القسم الذي أعمل به . وبالتالي تعلمين أن رئيسة هذا القسم هي السيدة نجوى. لتحاولي الاتصال بها عن طريق التليفون لمعرفة ما إذا كان لديها اعتراض .

بدأتْ تدير قرص التليفون ، وأنا واقف أمامها أفكر فيما إذا كانت نجوى قد عادت إلى مكتبها بهذه السرعة، فلم تمض سوى دقائق منذ تركتها تتلوى على فراش الغرفة، وقد تبعثر هندامها وأتلفت الدموع زينتها. هي في حاجة على الأقل إلى نصف ساعة حتى يمكنها التظاهر بأنها تخلصت من آثار الهزيمة و الدموع .

قلت ذلك لنفسي قبل أن تضع الموظفة التي أقف أمامها سماعة التليفون وتنظر إليَّ قائلةً :

- السيدة نجوى ليست بمكتبها الآن . يمكنك أن تنتظر لنعاود الاتصال بها بعد خمس أو عشر دقائق ربما تكون قد عادت إلى غرفتها. أو يمكنك أن تبحث عنها في احد طوابق الفندق وتطلب منها الاتصال بنا من أحد تليفونات الغرف.

ولأني أعرف أين توجد نجوى ، وماذا تفعل ، ولأني أيضاً لا أريد لأحد سواي أن يعرف شيئاً مما حدث ، فقد قلت وأنا أستدير مغادراً الغرفة :

- نجوى حين تكون مشغولة بالإشراف على أعمال نظافة الطوابق، فإنها لا تقبل من أحد أن يعطلها لأي سبب؛ لذا لن أبحث عنها، وسأكتفي بأن أعود إليك بعد نصف ساعة .

٢

لم أجد ما يمكن أن أفعله طوال فترة انتظاري لمصير طلب الإجازة الذي تقدمت به . فمجرد التفكير في استئناف العمل يشعرني بالغثيان ، سرت على مهل في اتجاه الحديقة الواسعة التي تقع خلف منشآت الفندق، التي تتوسطها بحيرة صناعية أنيقة إلى جانب حمام السباحة الواسع. وقفت أحملق في المقاعد المريحة والموائد ذات الألوان المتناسقة التي تبعثرت في أرجاء الحديقة بأسلوب هندسي جذاب. احتواني إحساس حاقد، وتركت خطواتي تتجه بتصميم حاد نحو إحدى الموائد القريبة من شاطئ البحيرة حيث يجلس اثنان من نزلاء الفندق. جلست قريباً منهما. بدا وكأني أتحدى عدواً جباناً يقبع في أعماقي حين تعمدت وبطريقة لا إرادية أن أضع إحدى ساقيَّ فوق المنضدة التي جلست إليها ، صحيح أن منظري في تلك اللحظة كان مثيرًا للسخرية أو الاشمئزاز من جانب من يعرفون أصول الإتيكيت في مثل هذه المنتجعات ذوات النجوم الخمس، إلا أنني لم أُعِر

اهتماماً للضحكة العالية التي سمعتها تنطلق من فَميْ الرجلين وهما يحملان أوراقهما وينتقلان إلى مكان بعيد عني . نظرت إلى ملابسي ، ثم ألقيت ببصري نحو مياه البحيرة . اعتراني أحساس عميق باحتقار الذات ، ما هذا يا صادق عز الدين ؟! هل أصبت بالخبل أم هي دودة العناد التي لا تريد أن تموت ؟ . وقبل أن أستطرد في تقريع نفسي ، إذا برئيس عمال خدمة الحديقة قادم نحوي وقد رسمتْ ملامحه خريطة بركان على وشك الانفجار :

- ما الذي أتى بك إلى هنا ؟

نظرت إليه دون أن أغير من جلستي وأنا أجيبه:

- قدماي يا يوسف .
- أعرف أنهما قدماك ، ولكن قانون الخدمة يعاقبك على جلوسك هنا .
- ملعونة يا يوسف كل قوانين الخدمة. ماذا تريد مني ؟
- لا تتحدي القانون الذي قبلت بالعمل وفق شروطه. أنت ليس من حقك كأحد العمال أن تجلس في هذا المكان المخصص للنزلاء.

- وقانون الخدمة قام بوضعه أصحاب الفنادق والنزلاء الأثرياء . أليس كذلك ؟

قلت ذلك بعد أن نهضت ووقفت في مواجهة يوسف وقد وضعت يداي حول خاصرتي، فقد كان يوسف واحدًا ممن تعرفت عليهم عند قدومي للعمل في المنتجع، ولعب القدر لعبته بيننا وصرنا صديقين، رغم الفارق الكبير بيني وبينه في الوظيفة والاختصاص. فأنا عامل نظافة في أحد الطوابق، وهو " مترودوتيل " ولهذه الكلمة رنين لا يحسه أو يقدره سوى عمال الفنادق ورجال المخابرات . كان يوسف قد توقع في البداية وبوحي من حديثي وتصرفاتي، أنني جئت هنا لعمل أداري كبير، ولكن بعد أن تعرف كل منا على الآخر عقب الأيام الأولى، تقاربنا، ثم تصادقنا، وتحادثنا طويلاً في أشياء كثيرة. صارحته بأن ما دفع بخطواتي إلى هذا المنتجع الملعون لم يكن سوى قدر لا اختيار فيه، أو هو اختيار مهزوم وبالتالي فهو خضوع لمشيئة الأقدار. لذا كان شعوري في تلك اللحظات هو

أنني أتحدث إلى صديقي يوسف وليس " المترودوتيل ". قال وعلى شفتيه ابتسامة، أحسست معها بتجاوبه التام مع ما يدور في ذهني :

- ليس من عادتك يا صادق أن تكون أحمقًا !!

قلت باستهتار :

- ولماذا لا أكون ؟!

قال :

- اذهب إلى الشاليه " بَدِّل ملابسك " وتعال اجلس حيث تشاء .

قلتُ بتبرم:

- أنا إذن ملعون طالما أرتدي هذا الزي وأضع هذه العلامة ؟

قال بود أحسست معه وكأنه شقيق لم تلده أمي:

- لا أريد لك أن تتعرض لسخافة أحد المسئولين .

قلت وكأنني أقر بحقيقة معروفه:

- المسئولون دائماً سخفاء يا يوسف .

قال وكأنه يدعوني لأن أشاركه رفضه وخضوعه :

- أدري ولكنها لقمة العيش .

قلت قبل أن أهِمَّ بمغادرة المكان :

- الآن لا حل أمامي سوى أن انتظر خلف أحد الجدران ، حتى تنقضي الدقائق الباقية .

- ماذا تنتظر ؟

سألني بتعاطف ودهشة .

- أنتظر موافقة السيدة نجوى على إجازتي لمدة يومين .

رمقني بنظرة عميقة، أحسست معها بحاجتي إلى دفء أهلي وحبيبتي وداري، ثم قال بلهجة حانية :

- تعالَ إلى الداخل .

- في المساء سوف أراكَ .

قلتها وأنا أسير وقد تعلقت عيناي بحركة قدمي اللتين راحتا تخطوان ببطء، كأن سلاسل غليظة تشدهما نحو الأرض. قبل أن أصل إلى الممر الطويل الذي توجد في نهايته غرفة مدير

شئون العاملين، نظرت إلى ساعتي. بقيت بضع دقائق لم تزل تفصل بيني وبين الموعد الذي حددته للموظفة التي صارت مسئولة عن إنجاز طلبي الخاص بالإجازة. وقفت في ظل الجدار، قريباً من الباب المؤدي إلى الممر الطويل. كنت أفكر فيما حدث منذ لحظات بيني وبين يوسف، ذلك الأسمر ذي القوام المشوق، واللهجة المميزة التي تمنحك عنوانه في صعيد مصر- قبل أن تتعرف عليه أو حتى دون أن تبادله حديثاً خاصاً. لا أدري كيف استطاع خلال فترة قصيرة أن يستدرجني ليحصل مني على الكثير من أسرار حياتي التي لم امنحها حتى إلى أقرب الناس إلى قلبي.

كانت الفترة التي قضيناها معاً متجاورين في شاليه واحد يقسمه حاجز خشبي إلى غرفتين ، أشبه بساعات اعتراف طويلة في معبد من معابد الرب، كثيراً ما تحاورنا بلا أقنعة، والهدوء والصمت الجاثمين علي قلب الصحراء الواسعة المحيطة بنا في ذلك المنتجع المعزول يفرضان على كل منا أن يتحدث

بصدق وتطهر . ها هي نجوى قادمة ، وشرر حانق يتطاير من عينيها .... تبدو رائعة بالرغم من زيف قناع العفة والكبرياء الذي تحاول أن تتحلي به. مرقتْ من أمامي وخطواتها المرتعشة توحي لأي كائن سوايَ بصدق ما تحاول الإيحاء به ..... أحسست بابتسامة لا إرادية تنفرج عنها شفتاي وأنا أتابع خطواتها حتى طرقت باب غرفة المدير .

انتظرتُ لحظات دون أن أبرح مكاني ثم اقتربت قليلاً حين سمعت الجرس الخاص بغرفة المدير ورأيت العامل المختص بخدمته يهرول إلى داخل الغرفة التي دخلتها نجوى وأغلقت بابها من لحظات. اقتربت من الباب يحدوني إحساس بالتفاؤل. لقد أتت نجوى بنفسها وأعتقد أنها ستوافق على إجازتي .سمعت المدير يقول لعامل مكتبه بصوت مرتفع :

- اذهب ونادِ العامل الواقف هناك في نهاية الممر.

تأكدت أن نجوى أخبرت الرجل بمكاني، حيث رأتني، وتعلم أين أقف منتظرًا. طرقتٌ الباب ثم دخلت، في حين كان

صاحبنا في طريقه للبحث عني حسب أمر سيده. وجدت نجوى وقد جلست على المقعد المواجه لباب الغرفة ، كانت تجفف دموعها بطريقة ماكرة ورقيقة ، أغلقت الباب ثم تقدمت نحو الرجل الذي ألقى بي في دوامة من الارتباك والدهشة حين ألقى بنظارته أمامه على المكتب وانطلق يسألني بأسلوب ساخر وحاد، أحسستُ معه بأكذوبة جديدة لنجوى غلفتها أمامه بدموعها :

- أتيت من لحظات تطلب أجازتك لمدة يومين ؟

- نعم

- ولماذا لم تخبرني بالسبب ؟

سألني بحدة واستهتار واضحين.

قلت مكررا ما سبق أن قلته له :

- أخبرتك سيدي أنني مرهق وأود أن أستريح لمدة يومين.

قال دون أن يفارقه غضبه:

- أقصد السبب الحقيقي، لماذا لم تعترف بمحاولة اعتدائك على نجوى ؟

أدرت وجهي نحوها وقد تملكني وجوم حائر، كانت ملامحها قد بدأت تعبر عن إحساس بالندم .

- سيدة نجوى أنا حاولت الاعتداء عليكِ ؟

غلبتها دموعها من جديد دون أن ترد على سؤالي .

فأضاف المدير موجهاً حديثه إليها :

- لم يذكر لنا شيئاً عن فعلته معك سيدة نجوى ، ولكن اطمئني فكل ما رويته لي عن محاولة هذا الخنزير اغتصاب شرفك في إحدى الغرف، سوف أدونه في محضر- أرسله إلى الشرطة إذا أردتِ ... أما إذا كنتِ كعادتك كريمة حتى مع هذا الصعلوك، مشيراً بيده نحوي، فسوف نكتفي بفصله من العمل .

امتقع وجه نجوى حين سمعت كلمات الرجل، وفقدت القدرة على إيقاف دموعها التي سقطت بغزارة، ثم رأيتها تخرج من الغرفة تاركة الرجل وأنا وجهاً لوجه. وقفت جامداً دون أن أنطق بكلمة واحدة. سادت لحظة صمت بعد خروج نجوى، قال بعدها الرجل وكأنه يحادث نفسه :

- مسكينة ... تحافظ على عفتها في مكان لوثته الكلاب .... لقد كان رأيي منذ البداية أن العمل في الصحاري المعزولة يحتاج إلى العاهرات والرجال، أما النساء من نوع نجوى ، فلا مكان لهنَّ في غير مخادع الطهر المعطرة .

ثم ما لبث أن تذكر وجودي أمامه ، وهو يبدو أنه كان قد نسيه ، فصرخ في وجهي :

- اذهب من أمامي ، وانتظر خارج الغرفة حتى ننهي خدماتك .

اكتشفت أن الرجل ليس لديه استعداد لأن يسمع مني كلمة واحدة ، أدرت ظهري خارجاً من الغرفة وكأني أسير في ظلام دامس، لم أعد أرى في تلك اللحظات سوى شبح من ذكريات الأيام القاسية التي سبقت حصولي على هذا العمل، ونظيراتها اللائي ينتظرنني بعد أن أحمل حقيبتي وأودع المنتجع والصحراء عائداً إلى قلب العاصمة لأبحث عن عمل جديد. وقفت خارج الغرفة وإذا بي أرى نجوى عائدة إلى بعد أن جففت دموعها .

اقتربت مني وعلى شفتيها ارتعاشة ندم، جعلتني أتعاطف معها رغم كل ما سببته لي .... قالت :

- لماذا إذن تركتني بالغرفة وأتيت إلى هنا ؟

- لأطلب إجازتي يومين .

قالت وعيناها تحتضنان مواجعي:

- ولكن الموظفة التي سألت عني بالتليفون لم تذكر ذلك ؟

سألتها وأنا أعود بنظراتي إلى موضع قدمي:

- ماذا ذكرتْ ؟

- قالت أن المدير يريدني بخصوص صادق عز الدين .

- لم تذكر لكِ السبب ؟

- لا .... ولذا توقعت أنك أتيت بسرعة وأخبرت المدير بما حدث بيننا .

- ولذا قبل أن يسألك المدير ، تطوعت بذبح شرفي وحرماني من لقمة العيش ؟

- كان لا بد أن أدافع عن سمعتي في مكان عملي.

- قلت وأنا أشيح بوجهي عنها لأنهي الحديث :

- لكِ العذر فربما أنا أخطأت دون أن أدري ...

تسمرت في مكانها للحظات وقد اغرورقت عيناها بالدموع ، ثم استدارت عائدة تشيعها نظراتي إلى أن توارت داخل ممر فرعي يقع المصعد في نهايته .

ظللت واقفاً لا أبرح مكاني إلى أن خرجت إلى الفتاة التي كانت قد كلفت منذ لحظات بإنجاز طلب إجازاتي ، تقدمت نحوي تسبقها يد ممدودة بمجموعة أوراق:

- خذ هذه الأوراق ، واذهب إلى قسم الحسابات لتتقاضى مستحقاتك .

لم أنطق بكلمة واحدة، في حين امتدت يدي إلى الأوراق لتتناولها، وتفحصيتها عيناي بسرعة، ثم أعدتها كلها بعد أن سحبت من بينها ورقتين فقط ، رمقتني بنظرة ازدراء وهي تقول :

- هـذه الأوراق يجـب أن تعطيهـا لمـدير قسـم الحسـابات ليـأمر بصرف مستحقاتك .

لم أُعِرْ اهتماماً لكلماتها وأنا أطوي الورقتين الخاصـتين بي لأضعهما في جيبي قائلاً :

- مستحقاتي ؟..... لا أريدها .....

بدت عليها الدهشة وهي تسمعني أضيف :

- لتخبري السيد المدير أن مستحقاتي وأرصدتي سـلبتني إياهـا عاهرة بتلفيق أكذوبة .

- تعني أن نجوى كاذبة ؟

سألتني باستغراب .....

- أكثر من ذلك .

- ولماذا اختارتك أنت بالذات ؟

- ولماذا كانت سالومي سبباً في قطع رأس يوحنا ؟

- إذن الرواية عكسية ؟

- هذا ما تعلمه السماء ونجوى وأنا .

٣

عندما حلت ساعة الظهيرة، كنت واقفاً على قارعة الطريق وبجواري حقيبتي المهترئة ، وشمس يوليو الملعونة ترسل حممها على رمال الصحراء فتحيلها جمراً ... وقفت طويلاً أتأمل السيارات التي تمرق من أمامي بسرعة جنونية غير عابئة بيدي التي أعياها التلويح والاستعطاف، احتواني إحساس بالمهانة، فبكيت ، بكيت بكل ما تبقى لي من مشاعر الكبرياء، ثم جففت دموعي وإحساس بالعطش يكاد يدفع بي إلى الجنون، يئستبعد طول التلويح والاستعطاف، فانحنيت إلى حقيبتي القابعة بجواري ككلب أجرب لألتقطها عائداً إلى يوسف حيث لم يعد أمامي سوى العودة لأقضي ليلتي معه، وفي الصباح المبكر يمكنني أن أستقل السيارة التي تذهب إلى العاصمة في الساعة التاسعة وهي السيارة الوحيدة التي خصصتها إدارة المنتجع لغرض نقل العمال الراغبين في الذهاب إلى العاصمة أو القادمين منها ...

علي إذن، إذا كنت أريد العودة إلى يوسف أن أسير مرة أخرى مسافة تزيد على الكيلو متر، وهي المسافة التي تفصل ما بين المنتجع والطريق الرئيسي المؤدي إلى العاصمة، وحين مددت بصري إلى

حيث يقبع المنتجع على بعد أكثر من ألف متر، تملكتني مشاعر حانقة، وإذا بي ألقي بالحقيبة بعيداً لتستقر على الرمال التي تغطي الخلاء الملامس للجانب الذي أقف عليه من الطريق ... كنت قد فقدت الأمل في مجرد جرعة ماء أروي بها ظمأي، حين أثار انتباهي صوت توقف مفاجئ لدراجة نارية كانت تمر من جانبي ، وإذا براكبها يسألني :

- وما ذنب حقيبتك تلقي بها بعيداً هكذا ؟

نظرت إليه بتمعن ، فأردف يقول :

- يبدو عليك الإعياء ، إنها حرارة تموز.
- أوشك أن أموت عطشاً .....
- لا بد أنك واقف هكذا منذ وقت طويل ..... إلى أين تقصد؟
- إلى العاصمة .....

قال وهو يهم بإعادة تشغيل محرك دراجته :

- هات حقيبتك واصعد معي .

قلت وأنا أهم بالاستدارة لالتقاط حقيبتي من حيث ألقيتها :

- ولكن .... هل يمكن أن أطلب منك التوقف عند أول نقطة في الطريق نجد بها ماء للشرب ....؟

أومأ برأسه موافقاً في حين اتجهت نحو حقيبتي لأحضرها وأصعد خلفه. استأنفت الدراجة سيرها دون حديث بيننا ، ورغم رغبتي إبداء امتناني له إلا أن إحساسي بالإعياء والظمأ جعلاني أوثر الصمت؛ حتى لا أشغله عن مقود الدراجة التي راحت تلهث على الطريق المقفر، وصوت محركها المزعج يذكرني بنواح البوم في ليالي الشتاء الطويلة ..... سافرت إلى جهات عديدة من هذا العالم وأنا صامت كالصنم ، حاولت أن أقطع صلتي بعالم الزمان والمكان هارباً إلى داخل ذاتي؛ لأبحث عما ينسيني عذاب اللحظة ومرارة التوقع لما يمكن أن يأتي مع لحظات العمر القادمة.

كانت المسافة بين المنتجع والمدينة لا تتعدى عشرين كيلو متراً، توقفنا عند نقطة في العشرة كيلو مترات الأولى حيث دعاني إلى زجاجة مياه مثلجة ، انتشيت بتجرعها كاملة رغم ما جلبته لي من تقلصات في أمعائي. بعدها لم أفكر فيما إذا كانت المسافة قصيرة أم طويلة إلا حين توقفنا أمام نقطة المرور الواقعة على مفترق طرق يؤدي كل طريق منها إلى حي من أحياء العاصمة، في تلك اللحظة ترجلت من خلف الرجل لأربت على كتفه شاكراً صنيعه ، وعلى شفتي ابتسامة حاولت أن أحملها ما تستطيع توصيله إلى مشاعره من عرفان بالجميل، ثم افترقنا، هو إلى حيث يقصد، وأنا إلى إحدى

محطات الأتوبيس لأصل إلى حيث يقيم توفيق، صديقي، ورفيقي القديم. لم أنتظر طويلا هذه المرة، فما هي إلا لحظات وتوقفت أمامي الحافلة القديمة ذات الطابقين التي أعرف هيئتها ورقمها منذ كنت أقيم بالعاصمة.

صعدت واتخذت مقعدا قريبا من الباب بعد أن دفعت الأجرة للسائق أثناء دخولي. لم تمض سوى دقائق استغرقتها الرحلة حتى المحطة القريبة من مبنى الفندق العتيق. قفزت من مقعدي وغادرت الحافلة لأسير متمهلا وكأنني عائد إلى بيتي الذي اعرفه ويعرفني. لم أجد أحدا بمدخل الفندق فاتجهت مباشرة إلى غرفة صاحبي. كان من حسن حظي أن وجدته بالغرفة. استقبلني بما كنت أتوقعه من شوق ولهفة، وحين رويت له موجزاً مختصراً عن رحلة العمل التي أبعدتني عنه تلك الشهور، رانت على محياه سحابة أسى قال على أثرها :

- أعلمُ أن لديك الكثير ومن حقك أن أسمع .... ولكن ....

- ولكن ماذا يا توفيق ....

سألته معاتباً .....

قال :

- ولكنك وصلت وأنا أتهيأ لارتداء ملابس العمل ومغادرة الغرفة .
- ومازلت تعمل في المخبز إياه ...؟
- نعم ..... أجابني.
- والعمل كما هو ؟
- لم يتغير ... ألهث على الدراجة طوال اليوم حاملاً على رأسي كميات الخبز ، أوزعها على أصحاب محلات البقالة الذين يتعاملون معنا ...
- ولماذا لم تبحث عن عمل آخر طوال هذه المدة ؟

سألته وكأنني ألومه على الاستمرار في هذا العمل، الذي كثيراً ما شكا لي من صعوبته وعدم قدرته على التلاؤم صحياً مع متطلباته. تنهد وهو ينهض من على المقعد البسيط المقابل لفراشه حيث أجلس، ثم قال :

- قد لا تصدق أن صاحب العمل طردني وأعادني ثلاث مرات خلال الفترة القصيرة الماضية، ولأسباب تافهة حرمني من المبيت في الغرفة الملحقة بمخزن الدقيق المجاور للمخبز ، التي كانت توفر عليَّ خمسة عشر ديناراً كل شهر، اضطررتُ لأن أعود وأدفعها مجدداً ، مقابل عودتي للإقامة في هذه الغرفة.....

ضحكت بسخرية وأنا أقول : "يبدو أن هذه الغرفة القذرة أصبحت جزءاً من قدرنا"..... ، ثم جلت ببصري بين الجدران الأربعة ، التي توزعت عليها خرائط من نسيج العنكبوت وكتابات ساذجة للذكرى تحمل أسماء البسطاء ممن تعاقبوا على سكنى الغرفة ، ثم قلت دون أن أرفع عيني من على الكتابات والرسوم :

- معظم الذين عاشوا هنا، في غرفتنا هذه، يبحثون عن الخلود ؟

ضحك توفيق وهو يضيف :

- يتوهمون أنهم في متحف ....
- ولكن لماذا لم يحاول أي منا كتابة اسمه على أحد الجدران مسبوقاً بعبارة : "للذكرى الخالدة" ؟

هكذا تساءلت وكأني أخاطب المجهول ولا أنتظر جواباً ، استمر توفيق في ضحكته قائلاً : "عندك الأقلام ملقاة على المنضدة ، تستطيع أن تعوض ما فاتك طوال الشهور السبعة" .

شردت بفكري قليلاً ، وكأني أحادث نفسي همساً .."ياه، كم من الأيام مضت منذ وطأت أقدامنا هذا التراب الحبيب ... فترة طويلة من العذاب والأمل..." ، ثم رفعت صوتي قليلاً محادثاً توفيق الذي كان ينهي استعداده لمغادرة الغرفة :

- يحيرني بحث المعذبين عن الخلود.

أردف وهو لم يزل مشغولاً بربط حذائه :

- ليتهم يكتفون بكتابة أسمائهم على الجدران وتركها لعوامل التعرية ، الأدهى من ذلك، طوابير التعساء الذين يأتون بهم إلى هذا العالم، لا لهدف إلا للذكرى والخلود، قالها وهو ينهض من مقعده واضعاً في جيبه حافظة أوراقه الصغيرة، ثم جذب من أسفل سريره حقيبة جلدية يستخدمها في حفظ ملابسه وأوراقه، فتحها ثم أخرج منها ثلاثة خطابات وضعها فوق السرير، ثم بعد أن أغلق الحقيبة وأعادها إلى مكانها ، أمسك الخطابات بيده وهو يعتدل في وقفته قائلاً : "كنت أنتظر سؤالك عن الخطابات" ، تهللت أساريري وأنا أنهض مختطفاً الخطابات من يده، ثم قلت :

- الآن يمكنك أن تتركني وتذهب إلى حيث تشاء ، أَمَا من أخبار أخرى؟ سألته باهتمام.

قال:

- لا شيء سوى شريط مسجل أبلغني الجميع فيه قلق أحباءك هناك؛ لانقطاع أخبارك عنهم .

- كنت أتوقع انشغالهم لتأخر خطاباتي ، فمنذ رحيلي من هنا لا أدرى ماذا أصابني. أظن أن مشاعري قد انطفأت فلم أعد أكتب لأحبائي كما اعتدت أن أفعل.
- ولهذا السبب اكتفيت طبعاً بمعرفتهم لهذا العنوان ؟

قلت وكأني أقر بحقيقة مؤكدة:

- ألم أقل لك من لحظات أن هذه الغرفة وهذا الفندق، هما بمثابة جزء من قدرنا الذي نتحرك داخل إطاره منذ وصولنا؟... لماذا إذن أغير وأبدل في العناوين ما دمت واثقاً أن صلتي بهذا المكان لن تنقطع .
- على كلٍّ ، إلى اللقاء بعد ثلاث ساعات ونصف .

قالها توفيق، وهو يخرج من الغرفة صافقاً وراءه بابها .

٤

حين وجدت نفسي وحيدًا في الغرفة ، تذكرت ما كنت قد نسيته لحظة لقاء صاحبي ... حاجتي إلى حمام بارد ، يعيد إلى جسدي المنهك شيئًا من الحيوية ، فألقيت بالخطابات الثلاثة على الفراش ورحت أخلع ملابسي التي بللها العرق الممتزج بغبار الصحراء وأتربة الطريق .

وبعد أن تخلصت من كل ما أرتديه باستثناء قطعة واحدة تستر عورتي، حملت منشفتي الكبيرة على كتفي، واتجهت نحو الدهليز المظلم حيث توجد مرافق دورة مياه الطابق، استطعت أن أتعرف على موقع الحمامات الأربعة عبر خرير مياه صنابيرها المعطلة ، قلت لنفسي بعد أن استطعت الوصول إلى باب أحد الحمامات متلمسًا طريقي ببطء وحذر شديدين :

- حسنًا ، صحيح أن المصابيح الكهربائية جميعها لا تعمل ، إلا أن الإنسان يمكنه تلمس طريقه في الظلمة مهما كانت حالكة ، المهم أن لا يرهبه أو يخيفه سواد العتمة مهما كانت حالكة.

حاولت إغلاق باب الحمام من الداخل، ولكن واجهتني صعوبة آثرت معها أن أترك الباب مواربًا، فالأمر سيان سواء أغلقت

الباب أو لم أغلقه، مَن ذا الـذي يمكنـه أن يـرى شـيئًا في هـذا الظـلام الدامس،

هكذا قلـت لنفسي- وأنـا أنـزع قطعـة التـوت المتبقيـة عـلى جسدي.

ثم أردفت متمتماً :

- لماذا نحرص على إغلاق الأبواب عندما نكون عراه ؟ .....
- لا عليك يـا صـادق، لعلهـا التقاليـد، أو المدنيـة التـي أحاطـت الإنسان بهالة من الزيف فجعلته كاذبًـا ومغـرورًا.... المهـم الآن بالنسبة لك، أن الباب، نصفه مغلـق، والظـلام دامـس، وسـكان هذا الفندق المتواضع جميعهم مـن الرجـال ، أي لا خـوف عـلى عورتك. ولا مجال لاتهامك بسوء الأخلاق، قلت ذلك وأنا أضع لباسي في مسمار مثبت في باب الحـمام مـن الـداخل ثـم تراجعـت قليلاً لأكون أسفل الصنبور العلوي (الدُّش) مباشرة ، وبعـد أن حددت مكانه جيدًا ، مددت يـدي متحسسًـا القبضـة الحديديـة المستديرة (المحبس) ، والمثبتـة في وسـط الماسـورة الرأسـية التـي تحمل الماء إلى أعلى. أدرتها حتى نهايتها ووقفت أنتظر تدفق المـاء عبر ثقوب (الدُّش) دون جدوى. تحسست بساقي موقع الصنبور

السفلي المثبت في نهاية الماسورة الرأسية من أسفلها، فلمست بطرف قدمي خيط ماء ضعيف ينساب من هذا الصنبور.

- ابتسمت في هدوء وأنا أجلس القرفصاء، في محاولة لاكتشاف ما إذا كنت أستطيع تحقيق غرضي عن طريق الانبطاح على أرضية الحمام أسفل الصنبور، ثم سخرت من نفسي وأنا أنهض مرتديا لباسي القصير، وتركت الحمام عائدًا إلى الغرفة متمتما : "أحيانا تمثل حتى الصنابير المصنوعة من حديد جامد جزءًا من تحديات القدر ... ولكن لا بأس، حين يقترب الليل سيعود اندفاع المياه أقوى مما هو عليه الآن ولحظتها يمكنني أن أستحم، أما الآن ، فلعلها حرارة الجو وضغط ربات البيوت في المنطقة هي التي أدت إلى ضعف اندفاع الماء عبر صنابير الطابق الثاني سواء في الفندق أو في المنازل المجاورة التي يكتظ بها الحي.
- المهم الآن أن أزيل ما يعلو وجهي من أتربة الطريق وغباره، وهذا ليس بالأمر المستحيل وفق الإمكانات المتاحة.
- أجلت البصر في أنحاء الغرفة، فوقعت عيناي على قطعة صابون يضعها صاحبي داخل علبة من البلاستيك الأبيض في النافذة المجاورة للفراش، أخذتها، وأخذت الفوطة الصغيرة النظيفة

التي لفتت انتباهي بانفرادها من بين كافة محتويات الغرفة بالبياض الناصع والنظافة، وعدت أدراجي إلى الدهليز المظلم متلمسًا طريقي إلى أحد الأحواض المثبتة على جانبي الدهليز فيما بين أبواب الحمامات ودورات المياه، وحين وقفت أمام أحد الأحواض بعد أن تحسسته بيدي جيدًا ، وضعت رأسي أسفل خيط الماء الضعيف المتدلي من الصنبور العاطل، ورحت أغتسل بعد أن وضعت الفوطة بين ركبتي ....

قبل أن أنتهي من الاغتسال ، إذا بي أسمع عامل نظافة الفندق يصيح مناديًا "شاي ، شاي" فأنهيت غسل ساقي بسرعة وهرولت نحو المنادي محاولا اللحاق به ، ولكن لم أجد له أثرًا في الطابق حيث كان قد هبط إلى الطابق الأول مما اضطرني إلى الوقوف عند الدرج صائحًا : "واحد شاي في غرفة توفيق باريس" .

وجاءني الجواب بصوت جهوري من صاحبنا الذي أعرفه جيدًا، والذي كان يتجول في الطابق الأول مناديًا على الراغبين في شرب الشاي ليحمله إليهم في غرفهم، وبعد أن اطمأننت إلى أن الشاي في طريقه إلي، عدت إلى الغرفة لأقف أمام المرآة الصغيرة المثبتة في دلفة الباب المغلقة أجفف وجهي وبعض أجزاء جسدي التي اكتفيت بأن

أبللها بالماء كاستعاضة مؤقتة عن الاستحمام، وما هي إلا لحظات وإذا بالرجل يدلف إلى داخل الغرفة وفي يده كوبا مملوءا بالشاي وضعه على الطاولة المواجهة للفراش، وبينما هو يستعد لمغادرة الغرفة نظر في الشخص الواقف خلف دلفة الباب المغلقة يجفف رأسه المبتلة، وإذ به يصيح : "أستاذ صادق؟" استدرت وأنا أفرد ذراعاي لاحتضانه قائلا : لقد سألت عنك منذ لحظة وصولي يا عم عبد الغني ، وأخبرني توفيق أنك بخير ....

- واكتفيت بالسؤال دون أن تراني ؟؟؟؟

سألني الرجل وقد اختلط في صوته العتاب بالحزن بفرحة اللقاء .

- لا يا عم عبد الغني ، كنت متعبًا لحظة وصولي ، ولم أجدك في انتظار الزبائن عند مدخل الفندق كعادتك.

قال وهو يَهِمُّ بمغادرة الغرفة :

على كل حال ، الحمد لله على سلامتك ....

ثم خرج ليتركني وقد بدأت أمشط شعري الكث؛ لأجففه من بقايا الماء العالق به .

٥

كانت جملة الرجل الأخيرة التي نطق بها أشبه بدقة ناقوس معلق في الذاكرة وإذا بي أعود إلى تلك الأيام الأولى التي كنت خلالها صديقًا لعبد الغني .... لن أنسى تلك الليلة ، كانت الساعة قد قاربت الحادية عشر مساء ، وكانت قدماي قد أصبحتا عبئا أنوء بحمله من جراء السير الطويل .

لم يكن قد مضى على وجودي هنا بالعاصمة سوى ساعات قلائل قضيتها حاملاً حقيبتي على ظهري في بحث لا يكل عن مأوى ، وكان زمهرير الشتاء القاسي ينخر في عظامي مخترقًا الحواجز الصوفية الواهنة التي ارتديتها ، كانت أمي قد وضعتها في حقيبتي قبل الرحيل .

في ذلك اليوم لم أكن أملك من الدنيا سوى مبلغ تافه من المال جعلني أبحث عن مأوى يناسب تفاهتي وحقارة ما أملك ... بحثت طويلاً عن هذا الحي الذي لم أكن لأصل إليه لولا معاونة السابلة في الطرقات المزدحمة التي تسكعت طويلاً على أرصفتها .

قالت مجموعة من المارة وهي تصف لي هذا الحي : إن التعساء من نفايات المدن البعيدة يجدون مأواهم في أزقته وبين أطلال خرائبه ... لم أتردد في المجيء ... التقيت بالكثيرين أسألهم عن مرقد لي فيما بين الخرائب التي يسمونها فنادق ... كانوا يلقونني بوجوه تواري عبوسها خلف مسحة من استسلام أبله ، وحين أشرح لهم ما أريد ، كان كل منهم ينظر إلى صاحبه وفي عينيه إيحاءات لم أتبين كنهها إلا فيما بعد. وحين كان أحدهم يتجرأ ويصطحبني إلى صاحب الفندق، حيث يقيم ويبدي استعداده لاستضافتي في غرفته، ويتلقى رفضا باردا من عجوز قابع خلف طاولة قذرة في نهاية مدخل الخرابة – الفندق– فينظر إلى بإشفاق وهو يقلب يديه دون أن ينطق بكلمة واحدة سوى إشارة مقهورة إلى ما تبقى أمامي من الشارع الطويل، تأكد لي أن الغرباء من قاطني مثل هذه الجحور، ما عادوا يملكون حتى إرادتهم، فأقسمت بيني وبين نفسي- أن لا أطلب من أي منهم مساعدتي ، لا لشيء إلا لكي أرحمهم من تلك المواقف التي يتجسد أمامي فيها عبودية البؤساء لأشياء كثيرة من بينها المأوى .

سرت بمفـــردي في الشـــارع الضـــيق أتطلـــع إلى الواجهـــات والأشخاص ، وحين ألمح فندقًا على أحد جانبي الشارع، كـان يتولـد في أعماقي إحساس متناقض بين التفاؤل والحذر .... تملكتنى مشـاعر الخوف من التشرد بلا مأوى وأنا أجد الشارع يوشك على الانتهاء، ولم يتبقَ سوى فندق واحد على بعد خطوات قلائل .

لم يكن أمامي سوى أن أطرق باب هذا الفندق في محاولـة أخـيرة، بعدها أبحث عن رصيف جانبي أتخـذ منـه مرقـدا حتـى الصـباح ... ترددت قبل أن أخطو خطـوتي الأولى حـين وقـع بصـري عـلى ورقـة صغيرة معلقة على الباب الحديدي وقد كُتِبَ عليها إشعار بعدم وجود أماكن خالية ، شعرت بانقباضه عنيفة وأنـا أقـترب أكثـر مـن البـاب الـذي كـان لم يـزل مفتوحـا ..... وقفـت لحظـات أتأمـل الورقـة المعلقة .... كـان الشـارع قـد خـلا تمامـا مـن المـارة في تلـك السـاعة المتأخرة ، وبينما أرفع عيني من على عقـارب السـاعة متفحصـا الجهـة اليسرى من الشـارع حيـث اكتشـفت زقاقًـا جانبيًـا دار بخلـدي أنـه بإمكاني النوم أمام أحد أبوابه حتى الصباح ، إذا بي أنتبـه عـلى صـوت قادم من المدخل المظلم للفندق يسألني صـاحبه عـما أبحـث ، لم أجـد

إجابة في تلك اللحظة ... فآثرت الصمت وأنا أمعن النظر في الزقاق القريب، في محاولة لاكتشاف موضع غير مغمور بمياه المجاري الطافحة يصلح مرقدًا لكائن حي عدا الصراصير .

لم يدر بخلدي أن صمتي سوف يثير فضول الرجل ، أو ربما خوفه فنهض من مقعده في نهاية مدخل الفندق قادمًا نحوي يكرر سؤاله من جديد. وحين وقف في مواجهتي مبديًا استعدادًا ضمنيًا للاستماع، أفضيت له ببعض مما مررت به في يومي الأول. رويت له قليلا عن عالمي الذي تركته خلفي والذي هو خليط من الحاجة والقسوة وروح شابة متمردة، وكيف دفع بي كل هذا الخليط من الأشياء والصفات، إلى حيث أنا الآن في يومي الأول بعيدا عن الأهل والأحباب والوطن. حدثته عن جوعي وعطشي طوال اليوم، وعن حلمي المتواضع في إيجاد مأوى، مجرد موضع للنوم وقضاء الحاجة. .....

تأمل حقيبتي الجرباء ، ثم راح يتفحص هيئتي طويلاً بعينين يشع منهما لمعان غريب ، وإذا به يدعوني للدخول وهو يستدير عائدا إلى الداخل. لم أتردد في أن أتبعه إلى حيث يوجد مقعد خشبي مستطيل

في نهاية المدخل، وقبل أن يشير علي بالجلوس، كنت قد ألقيت بحقيبتي جانباً وجلست مستنداً إلى الحائط في حين خرجت من صدري تنهيدة طويلة شعرت معها أن آلامي كلها تتجمع لتعلن عن نفسها بصوت مسموع .

أحسست بنوع من الأمان وأنا أجول ببصري في المدخل الذي أضاءه الرجل من لحظات ، اكتشفت نظافته رغم البؤس الواضح والمرتسم على بلاط أرضيته الباهتة ، انفرجت شفتاي عن ابتسامة مغتصبة،... أحيانا تتقهقر أحلام الكائن البشري فيشعر بالأمان حين يضمن لنفسه مرقد كلب في مدخل فندق بائس .

استعادني الرجل من تأملاتي حين عاد إلى بعد أن أشعل ضوء غرفته طالباً مني الدخول إلى الغرفة وتغيير ملابسي ، ثم قال وهو يدير وجهه عني منصرفاً إلى غرفة صغيرة بها بعض الآنية والأغراض ، ومجاورة لغرفته : من حسن حظك أنني لم أتناول عشائي حتى الآن .....

بالرغم من أنني نهضت بخفة لتنفيذ ما أمرني به، إلا أن أحساساً بالخوف بدأ يستيقظ في أعماقي ..... ترى ماذا يريد مني

بالضبط؟ ..... كانت الشكوك قد بـدأت تسـتولي عـلي وأنـا أجلـس قبالته، فقفز إلى لساني سؤال خبيث :

- لا أدري ما الثمن الذي يمكن أن أدفعه لقاء كل هذا ؟ ...

وانتظرت الجواب .... نظر إليَّ دون أن ينطق بكلمة واحـدة ، وأشـار بيده يدعوني لتناول الطعام وهو يقول وقد راح يضرـب أرغفـة الخبـز ببعضها ليزيل عنها النخالة التي علقت بها أثناء عملية الخبز:

- هذا فول مدمس وقـد أضـفت إليـه بيضًـا مقليًـا ، ثـم أشـار إلى صحن آخر وهو يقول، وهذه جبنة مصرية بالطماطم أهداني أياها أحد النزلاء هنا، أما هـذه، قالهـا وهـو يشـير إلى صـحن أصـغر حجمًا، فهى عجوة مقلية بالســمن، أيضا من مصر أعددتها لـك لكي تحلي بها فمك بعد الأكل، قالها ضاحكًا وكأنه يحاول إزالة ما يستطيع من مشاعر الغربة والخوف التي بالتأكيد كانت بادية على ملامحي .....

شكرته وأنا أعتدل في جلستي وقد بدأت بالفعل أشعر بقدر مـن الارتياح، ثم قلت وكأنني أحادث نفسي :

لقد تغير الإنسان كثيراً في هذا الزمن، صرنا قبل أن نمد يدنا لتلقي سلاماً، مجرد سلام ، نفكر ألف مرة في الثمن ، لم يعد ثمة شيء من غير ثمن ، حتى العلاقة بين أخ وأخيه، أو رجل وزوجته، جميعها صارت تقدر من قبل الطرفين علي أساس المنفعة والثمن ..... ثم رفعت صوتي قليلاً وأنا أضيف : حين يقتصر الأمر على ما نستطيع تقديمه للآخر مقابل خدمة أو منفعة، فليس هناك مشكلة .

قاطعني دون أن يرفع عينيه من علي الطعام الذي نتناوله :

يبدو أنك قلق من ناحية الثمن ، لتتناول عشاءك وحين تأتي لحظة الدفع فسوف تدفع. أنا واثق من قدرتك على دفع ثمن العشاء والمبيت.

وجدتني ألوذ بالصمت انتظاراً لما سيأتي به الليل الذي قارب على الانتصاف .

انتهينا من تناول عشائنا، وكان عليه أن يعود إلى مكانه على مقعده الخشبي حيث يراقب الدخول والخروج إلى الفندق. فتطوعت بتنظيف المكان وصحون الطعام وأعدتها إلى مكانها، ثم تبعته إلى حيث كنا نجلس، هو على مقعده الخشبي المستطيل وأنا في مواجهته على

الكرسي الذي كان قد أحضره لي من خلف طاولة الاستقبال. بدا وكأنه تذكر شيئا هاما كان قد نسيه، فاستأذن مني للحظات عاد بعدها حاملا كوبين من الشاي وضعهما على طاولة صغيرة بيننا وهو يقول .

الشاي جزء من حياتنا خصوصا في هذا البرد وليل الشتاء طويل كما تعلم.

مددت يدي إلى أحد الكوبين ورحت أرشف منه على مهل دون أن أقول شيئا.

أخرج من جيبه علبة سجائر من النوع الرخيص، وأخرج منها سيجارتين وضع إحداهما بين شفتيه وقدم الأخرى لي وهو يمد يده نحوى بعود الثقاب المشتعل. رحنا ننفث الدخان في صمت لا يقطعه إلا صوت طريقتنا في احتساء الشاي.

لم يدم صمتنا طويلا بعد أن قطعه بحديث لم أكن أتوقعه من رجل لا أعرف عنه شيئا سوى ما آراه من هيئته المتواضعة وعمله البسيط ، راح يسرد وكأنه يحادث المجهول :

...منذ ارتكب آدم الخطيئة الأولى وطُرد من الجنة ، ونحن أحفاده نعيش حياه أجبرنا عليها دون أدني فرصة للاختيار .....وجدتني أنصت إليه بالرغم من حاجتي إلى لحظات استرخاء بعد أن شعرت بثقل معدتي التي امتلأت بعد قرابة يوم كامل من الخواء ، أضاف :

إنه قدري وقدرك وقدر الآخرين أن نعيش أحزان الحياة وأفراحها كما فُرضت علينا، ولو كانت أمامنا فرصة واحدة للاختيار ، لما وجدت على هذه الأرض سوى أفراد قلائل يمتلكون كل شيء ويسعدون بكل شيء .

بدأ إحساس بالأمان يتسلل إلى وجداني وأنا أفسر ما بين كلماته من معانٍ أكثر عمقا مما توقعت، يبدو أنني أسأت الظن ، قلت ذلك لنفسي وأنا أتململ في جلستي مبدياً اهتمامًا واضحًا بكلماته التي بدأت تتغير معها ملامحه. استمر في حديثه دون أن ينتظر مني تعليقًا :

حين أخبرتني باسمك ، تأملتك مليًا ، رأيت فيك ذكرى غالية ، طيفا حبيبا تجسد في محياك ، ووجهك المكدود حملني إلى لحظات حلم خَبَا بريقها مع شموع العمر التي انطفأت التي يتطفىء ما تبقى منها مع كل لحظة تمر، وحين كررت سؤالك لي عن الثمن

الذي أطلبه، ورحت تتمتم محادثا نفسك حول المنفعة والحاجة ونذالة بني البشر في زمننا هذا، قلت لنفسي لابد أن أخبرك بكل شيء حتى يمكنك النوم بهدوء، ودون خوف. توقف للحظة ثم أردف :

أظن أنك على استعداد لأن تسمع ما سأرويه لك.

أومأت له برغبتي في سماع كل ما يقول،

اعتدل في جلسته وأشعل سيجارة جديدة تاركا علبة السجائر والثقاب ملقاة على الطاولة بيننا، وكأن لسان حاله يطلب منى أن لا أتردد في إشعال سيجارة حين أريد.

ثم عاد ليستأنف حديثه وكأنه يسترجع ذكريات عمره وقد تلاشى وجودي أمامه :

تزوجت منذ ثلاثين عاما مضت ، كنت وقتها قد بلغت العشرين ، عشت قانعا بكل ما تأتي به الأقدار ، لم أكن قد بدأت البحث عن رحلة البدائل لهذه الحياة ، كنت أعمل سائقا خاصا لسيارة مسئول كبير في إحدى الحكومات ، وكنت بحكم عملي أطلع على الكثير من خفايا حياته الأسرية ، كان الرجل في نظري بمثابة تجسيد لتعاسة الحكام حين يترك الواحد منهم صولجانه عند مدخل

غرفته الخاصة وتعريه زوجته لتحاكمه ، صحيح أنني لم أعرف من خفايا حياته القدر الذي أقف من خلاله على أسباب صراخ زوجته في وجهه كل مساء متهمه إياه بالكذب والنفاق ، إلا أنني اعتقدت أن كونه مسئولا كبيرا في الحكومة ، كانت هي نقطة ضعفه التي جعلته أسير زوجته القوية ، وكنت حين أعود إلى بيتي ، وألتقي بزوجتي وولدنا الوحيد أشعر بأن كل شيء في الدنيا يسير على أروع ما يكون .

وتغير الزمن ، وانتهى دور الرجل ، ووجدت نفسي مجبرا على البحث عن عمل جديد... كنت في الأيام الأخيرة من عملي لدى الرجل قد بدأت أشعر بألم في ساقي اليمنى عندما أجلس إلى مقود السيارة ، وعندما اصطحبني إلى أحد الأطباء كانت نصيحة هذا الأخير لي أن لا أقود السيارة أكثر من ساعة أو ساعتين في اليوم ، ولا أكتمك ، أنني سعدت بنصيحة الطبيب بعد أن صرت أتقزز من عملي كسائق خاص .... لذا ، فحين جاءتني فرصة عمل كحارس لإحدى العمارات الكبيرة ، لم أتردد... كنت وزوجتي سعيدين بولدنا الذي بدأ يكبر ويذهب إلى المدرسة ... أغدقنا عليه من حبنا ، وكنا نحرم

أنفسنا من بعض الضرورات لنوفر له غذاء وكساء، لا يقل عما يوفره لأولادهم سكان العمارة التي أحرسها ....

ولأن الحياة لا تمضى لفترات طويلة بالصورة التي نشتهيها ونسعد بها، لذا جاء علينا الدور مبكرا وعلى غير توقع، ماتت زوجتي فجأة، لم تمرض سوى أيام قلائل أسلمت بعدها الروح.... وكان علينا أنا وولدي الوحيد أن نقبل بنمط جديد من الحياة يختلف عن ذلك المعبق برحيق حواء الأم والرفيقة ... نجحت كعادتي في اختبارات الأيام ، كبر ولدي وأصبح في المرحلة الثانوية من دراسته ربطتني وإياه صداقة من نوع نادر ....وذات يوم عاد من مدرسته مبكرًا ، لم يجدني في البيت الذي كان لا يبعد عن العمارة التي أعمل فيها أكثر من ثلاثمائة متر .... أتى إليَّ، كانت المرة الأولى التي يراني فيها في العمل ....

وجدني جالسًا أمام الغرفة الواقعة أسفل سلم العمارة والتي يسميها سكان العمارات "غرفة البواب" ، ووجد في مواجهتي شاب ، يكيل لي شتائم وعبارات تأنيب .... كان فتًى مخنثًا، وعمره أقل بقليل من عمر ولدي ... تقدم صادق وكان هذا هو اسمه نحو ذلك الفتى بهدوء يسأله عن سبب إهانته لي ، لم يكن المخنث يعلم أن الشاب

الواقف أمامه هو ابني ، فرمقه بنظرة شذوذ ناعمة وهو يشرح له كيف أنني رفضت الذهاب لشراء سجائر له ولأصدقائه ..وحين رأى حالة من الغضب الأهوج تكتسي ملامح ولدى ، ورآني انهض محتضنا إياه ، انصرف على الفور .... أما صادق، ابني، فقد ابتعد عني قليلا وهو يقول " أخبرتني أنك تعمل حارسا لهذه العمارة ، مهنة شريفة وفق ما نعتقد ... أما أن تكون خادما لمختثيها وساقطاتها وتتعرض لمثل هذه الإهانة، فلا أنا ولا أنت فقدنا قدرة المواجهة مع الحياة إلى هذا الحد، ثم تركني وانصرف ، لحقت به بعد وقت ليس طويل ، وجدته قد سبقني إلى البيت وأعد الطعام كما هي العادة حين يسبق احدنا الآخر في العودة حيث يعد الطعام وينظف شقتنا الصغيرة، تناولنا غداءنا وجلسنا متقابلين ، كما نجلس الآن أنا وأنت ، تماما ...قال بصوته الهادئ : لن أجبرك على ترك العمل ، ولكن لتعلم أنني من اليوم قررت أن أترك الدراسة وسأبحث عن عمل لى ، وأعتقد أن ما حصلت عليه من تعليم حتى الآن يكفينى. لم يكن لديه استعداد لسماع تبريراتي أو نصائحي. مضت أيام تسعة بعد ذلك الحوار بيني وبينه ، وإذا به في اليوم العاشر يوقظني مبكرًا في الصباح طالبا مني أن

أساعده على الرحيل ... قال : لقد رتبت كل شيء، بقيت فقط بطاقة الطائرة، أريد جزءا من المبلغ الذي تحتفظ به للزمن ، سوف أرسله إليك بمجرد وصولي وإيجادي فرصة عمل. وقبل أن أسأله عن وجهته أو إلى أين قرر أن يرحل ليبحث عن عمل، أضاف:

صحيح أنني لا أستطيع شراء فرصة عمل في أي من صحارينا الغنية التي يباع فيها ويشترى كل شيء، ولكنني أستطيع السفر إلى عاصمة لا تهين كرامة الرجال بقدر ما تمنح فرصة وأملا. سمعت أن الفقراء في تلك العاصمة لا يجبرون على بيع كبريائهم مقابل كسرة خبز. أما أنت ، فلتعلم أن رحيلي هو فقط من أجلك، لن أقبل لك الإهانة أو مذلة الحاجة بعد ما رأيت. فقط أدع لي كما عهدك دائما.مضت الأيام مسرعة بعد ذلك اليوم، وجاءت لحظة الرحيل ، بكيت وأنا أودعه. قال وهو يقبل يدي : من حسن حظنا يا أبتاه أننا أبناء وطن واسع، ان ضاق بنا العيش هنا يمكن لنا أن نبحث عن فرصة هناك رغم عذابات الحدود وقسوة الحكام. وأخذه طائر الفراق الأصم ، ثم بدأت رسائله تصلني تباعا لم يشك لي في أي من رسائله جوعا أو عطشا أو شيئا من عذابات الغربة التي علمت كم كانت قاسية عليه بعد أن أتيت إلى هنا

وخبرت ما مر به في أيامه ولياليه. كانت رسائله تصلني محملة بالأمل، ومع كل رسالة مبلغ من المال وحديث عن حالة عشق راحت تضيء أمامه عتمة الاغتراب، قال لي في إحدى رسائله : "أحببت يا أبتاه وحين يهاجمنا العشق لا يجدي إغلاق النوافذ والأبواب ...كنت واهما حين تصورت أن بنات مدينتنا هن فقط القادرات على الغرباء أو الفقراء ...." كانت رسائله هي طاقة الأمل وشعاع الشمس ونور القمر في وحشة أيامي وليالي الطويلة ...

مضت بي الأيام على هذا المنوال ، بين انتظار رسائله، ومراقبة رصيد ما أدخره من أجله ليستطيع بدء حياة جديدة عندما يقرر العودة إلى داره وأهله. وذات صباح أيقظتني طرقات عنيفة على باب الشقة، فنهضت منزعجا من نومي ، كان كابوسًا مخيفًا قد جثم على صدري طوال الليل ، لا أتذكر التفاصيل ، ولكني شعرت أن الطرقات العنيفة قد أنقذتني من صراع مخيف عشته داخل قطار لم أعرف له بداية أو نهاية ، أذكر أنني كنت الكائن البشري الوحيد في ذلك القطار الذي لا أعرف من أين بدأ أو إلى أين يتجه ، أما رفاق رحلتي فقد كانوا عبارة عن مجموعة من كائنات غريبة ، متوحشة ، تحاصرني من كل اتجاه .

اتجهت نحو الباب ، فتحته ، ولكني لم أجد أحدًا ، هممت بإغلاقه من جديد عائدًا إلى فراشي ، استرعى انتباهي وجود ورقة دستها يد من أسفل الباب ، انحنيت عليها ، وحين حملقت في سطورها لم أجد سوى جملة واحدة مفادها دعوة ، أو أمر سمها كما تشاء ، المهم أنني مدعو للذهاب إلى قسم الشرطة في أقرب وقت ، أحسست بانقباض حاولت معه أن أهرب من دوامة التوقعات ، ولم يمض وقت طويل وإذا بي جالس أمام ضابط شاب استقبلني باهتمام زاد من قلقي ، وبعد أن أمر لي بفنجان من القهوة ، أخذ يسرد علي قصصًا وحكايات بعضها من الكتب المقدسة وبعضها الآخر من الأساطير ، وكلها تدور حول تفاهة الرحلة ما بين الميلاد والموت ، داخلني إحساس بالأسى وأنا أوهم نفسي بأن هذا الشاب يستخف بثقافتي المحدودة ، لم أكن أدري أنه في حديثه الطويل يبحث عن مدخل مناسب لموضوع استدعائي في هذا الوقت المبكر، إلا حين أخرج من درج مكتبه برقية سلمها لي، وهو يقول: " لا تدري نفس بأي أرض تموت" .

مررت بعيني سريعًا على البرقية التي كنت قد فردتها بكلتا يداي ، "جارٍ إعداد اللازم بشأن ترحيل الجثمان" دارت بي الأرض دورة واحدة واختفى كل شيء ، لم أعد أشعر بما إذا كنت حيًا أم ميتًا إلا حين تنبهت بعد يوم كامل ، وجدت حولي أناسًا كثيرين ، رحت أسألهم عن جثمان صادق ، هل وصل أم لا ، كانوا جميعهم من أقاربي وجيراني ، قالوا "علينا بالانتظار" انتظرت يوما ثانيا وثالثا ، وفي اليوم الخامس وجدت نفسي- وقد وقفت في طابور طويل من المسافرين ، تسألني عن سبب سفري؟ إنها الأبوة ، لن تستطيع تقدير مشاعري إلا إذا كنت أبا ، ولا قدر الله ، فجعت في وحيدك الذي ماتت أمه وتركته يشاركك اجترار الذكرى ورحلة الحياة، وحين وصلت إلى هنا، إلى هذه المدينة، ذهبت إلى جهات كثيرة ، من ذوات العلاقة ، أسألها عن مصير جثة ولدي ، التقيت برفاقه ، أخبروني أن الجثة تم شحنها يوم وصولي ، جلست إليهم أسألهم عن أشياء كثيرة يهمني أن أعرفها عن ولدي الذي رحل ، كيف كان يعيش ؟ ، كيف مات؟ ، طبعا لم أسأل لماذا مات ؟ كنت فقط أريد أن أطمئن على حياته طوال الفترة التي قضاها بعيدا عني . أخبروني بكل شيء ، وحين

سألتهم بإلحاح عن كيفية موته ، قالوا إنه القدر والعمر الذي انتهى ، ثم تجرأ أحدهم وقال : مات صادق محترقًا إثر انفجار أنبوبة الغاز في المطعم الذي كان يعمل فيه.

فكرت في العودة من حيث أتيت كي ألحق بالجثمان وأودعه وداعًا أخيرًا ، ولكن كان الخور قد بدأ يتسلل إلى بنية ذاتي ، ورحت أسأل نفسي : وما الفائدة من العودة ؟ لإلقاء نظرة على تابوت من الخشب ؟ لقد مات صادق محترقًا ، وإذا رضخ الآخرون لجنوني وكشفوا الغطاء عن وجهه ، فلن تكون نظرتي الأخيرة على قسماته المتفحمة سوى مدعاة لمضاعفة العذاب ، من الأفضل أن أحتفظ بصورته التي حفرتها طفولته وشبابه في ذاكرتي ، يكفيني أن أتذكره وهو يربت على كتفي في المطار مودعا وكلمته الأخيرة : نحمد الله يا أبتاه أننا أبناء وطن واسع ....

قررت أن أبقى هنا ما تبقى لي من عمر ، لو حكيت لك الباقي ، فربما تتهمني أنت أيضًا بالجنون ، لا يهم ، لقد جعلتني أنت أسرد عليك كل هذا بتكرار سؤالك عن الثمن وتبادل المنافع.

سألت الكثيرين عن مكان المطعم حيث قضى صادق أخر لحظات حياته ، وحين عرفته صرت من زواره ، ودون أن أدع أحدا

يشعر بي، أذهب إلى هناك، أقف قريبا من الباب ، أتأمل الحركة التي لم يوقفها أو يؤثر فيها موت صادق ، أتذكره وأعيش معه لحظاته الأخيرة التي سبقت انفجار أنبوبة الغاز ، ثم أعود إلى هنا حيث أعمل وأنام .

في زياراتي اليومية لذلك المكان، تكرر أمامي مشهد تنبهت له بعد أن اعتادت عيناي على معظم المارة الذين يمرقون من أمام المطعم غدوا أو رواحا ، فتاة حلوة تأتي في ساعة معينة من يوم معين من كل أسبوع ، تمر في هدوء من أمام الباب الجانبي ، تتمهل قليلاً وهي تحتضن بنظراتها نسمات الهواء التي ترتطم بالباب والجدران ، شعرت تجاهها بإحساس غريب دفعني إلى تعمد الاقتراب منها في إحدى المرات لأسألها عن سر زيارتها الأسبوعية ، صدق حدسي حين أخبرتني بكل شيء ' قالت أنها أحبته وستظل وفية لذكراه ، اغرورقت عيناها بدموع حزينة حين أخبرتها أنه ولدى، وأنها كانت عشقه وأمنية حياته، وأحضرت لها بعضا من رسائله لي التي احتوت مقاطع من نبضات فؤاده الهائم بها، قلت لها وأنا أودعها، دعيني فقط أراك يا ابنتي ، يكفي أنك كتاب الحب الذي احتضنه ولدي وهو يتلظى بألسنة الجحيم. بكت وهي تتأمل الباب والجدران التي أعيد

طلاؤها ، ثم رحلت .....ولم أعد أراها بعد ذلك اليوم رغم بحثي عنها في كل مرة أذهب إلى هناك.

توقف عن السرد وهو يصدر زفرة طويلة حملت لي كل معاني الحزن واللوعة في حياة الإنسان، ثم امتدت يده ليخرج سيجارة جديدة، أشعلها وهو ينظر إلى احتراق طرفها نافثًا دخانه في عود الثقاب ليطفئه ويلقى به في المنفضة الصدئة الموضوعة بيننا، ثم عاد ليوجه حديثه لي قائلاً:

أرجو أن لا أكون قد أحزنتك، أو أطلت عليك، أعلم أنك متعب وتود أن تستريح ، قال ذلك وهو يشير نحو حقيبتي الملقاة بعيدا عني ، ثم استطرد:

حين رأيتك تحمل هذه الحقيبة ، تذكرته يوم جاء إلى هنا ... تجسدت أمامي صورته في ساعات غربته الأولى..... لم أتردد تجاه صرخات مكتومة اشتعل أوارها في أعماقي ، فدعوتك ، لا لشيء إلا لأتحدث إليك، وأحميك من وحشة الوحدة في ليلة غربتك الأولى. لا يوجد في هذا الفندق من يعلم بقصتي سواك ، أرجو أن تكتم السر، ثم نهض من مقعده وهو يقول :

يمكنك أن تنام في هذه الغرفة – مشيرًا إلى غرفته – أما أنا فقد أعددت لنفسي مرقدا في الغرفة المجاورة ، ذلك إلى أن يرحل أحد المقيمين لتحل محله في إحدى الغرف.

ثم توارى عني ليجفف دموعًا غلبته.

كانت تلك هي بداية الصداقة بيني وبين عم عبد الغني ، عامل الفندق الذي أحببته ورأيت فيه الكثير من خصال والدي، الذي تركته يقترب من نهاية عقده الثامن .

٦

يا لك من مجنون أيها القابع خلف حدود الجوع والعطش ، متى تريحني من رحلاتك البرية بين أدغال الماضي ومجاهيل المستقبل؟

قلت ذلك لنفسي حين تذكرت كوب الشاي الموضوع على الطاولة والذي تبدى أمامي في المرآة بعد أن انتهيت من تجفيف شعري وتمشيطه ، وغيرت موضعي لألتقط سروالاً من على طرف الفراش .

هأنذا أعود من رحلة الذكريات، وأول ليلة لي في هذا الفندق، وأول معرفة لي بهذا الرجل الذي يبيع الشاي ويخدم النزلاء، عم عبد الغني. نظرت حولي حيث أجلس بعد أن ارتديت سروالي لأجد رسائلي الثلاث التي تنتظر القراءة.

أضفت وأنا أقفز بخفة إلى أعلى الفراش لأستلقي في وضع استرخاء يمنحني فرصة الاستمتاع بالقراءة المتأنية :

- أحيانا نكون أنذالا رغم إرادتنا ، نسيت حاجة الرجل إلى صداقتي ، وإذا بكلمة عتاب منه تعيدني إلى تذكر حكايته الطويلة ....

تناولت الخطابات بكلتا يدي ورحت أفرزها لأتعرف على تاريخ وصول كل منها. اخترت أحدها ووضعت الآخرين جانبًا. وحين بدأت القراءة لم أتمالك نفسي وأنا أتمتم:

مجنونة....

نطقت بالكلمة حيت وقعت عيني على فقرة تقول فيها "...أشعر أنك مسافر إلى مدن لا عودة منها ....." وقبل أن أستطرد في القراءة، إذا بي أفاجأ بصوت توفيق الذي كان قد وصل منذ لحظات ووقف عند مدخل الغرفة يراقبني من قبيل الممازحة ثم قال عبر ضحكة لطيفة:

- مجنونة لأنها أحبتك ؟

قلت بجدية تغلفها الدهشة والاستغراب:

- تأمرني بالعودة حالاً ، اسمع، وقرأت له الفقرة التي تقول "....أما إذا أعيتك الحيلة عن تدبير ثمن تذكرة الطائرة، فلتبدأ رحلتك سيرًا على الأقدام ، أعلم أنه أمر شبه

مستحيل ، ولكن المهم أن تغير المسار الذي أشعر أنه يأخذك بعيدًا.. إلى مدن مجهولة الملامح....."

قاطعني توفيق بلهجة لا تخلو من تعاطف مع كلماتها:

ربما أخبرها الطير بصنوف المعاناة التي نحياها، فالمرأة عندما تحب ترى حبيبها الغائب وتسمعه وتشعر بخلجات فؤاده. أنه شيء خاص بالمرأة لا نعرفه نحن الرجال.

عدت إلى الرسالة مجددا لأقرأ له بصوت مسموع وكأني أدعوه لأن يصمت ويستمع :

".....لم أعد بقادرة على مواصلة الكذب وادعاء السعادة في انتظار فارسي الذي وعدني بالعودة والحب الذي لا يموت ، الهواجس تستبد بي، والأفق أراه مثقلا بألوان قاتمة، الغروب الذي عشقناه معا حين كان يكسو الأفق برداء وردي متوهج ونحن نجلس أمام النافورة على الشاطئ، لم أعد أرى فيه ألوانًا جميلة ناعمة تعدني بالسعادة المؤجلة. صار الغموض والرهبة والخوف من المجهول هم رفاقي وصحبتي حين أخرج إلى المتنزه

وقت الغروب، وأرى صورتك تتوارى في شحوب خلف ستائر معتمة لا أدرى ما هي، فأتذكرك ، وأراك ترتحل إلى آفاق موحشة المرافئ....." .

- حبيبتك تقرأ الشعر .....

قال توفيق متظاهرا بالاستخفاف، في محاولة لتبديد مسحة كآبة بدأت تخيم على جو الغرفة .

- إنها قصيدتي، وحبي، وترحالي...
- لكن يبدو أن البعاد حين يطول أمده بين المحبين ، يولد الهواجس ويوقظ الأحاسيس القاتمة .
- لا أدري .... إنها المرة الأولى التي أشم في سطورها رائحة الأحزان .

قال وكأنه يطيب خاطري:

- لا عليك .... فغدًا ، حين تلقاها ، وتعيدان معا قراءة هذه الرسائل تضحكان طويلا ، ثم أردف وهو يربت على كتفي :

- آمل ألا يكون قد تغير شيء مما اتفقنا عليه .....

ابتسمت وأنا أنهض من رقدتي قائلا :

- أعلم أنك تريد استدراجي لأبوح لك بما تود معرفته .

ثم ألقيت بالرسائل الثلاث على الطاولة، وأنا أقول :

- حسنا ..... هيا بنا فأنا أيضا في حاجة إلى الحديث وبعض الطعام.

مضينا إلى أحد المطاعم القريبة من الفندق حيث تناولنا عشاءنا ثم رحنا نسير على مهل في شارع جانبي ينتهي عند شاطئ النهر. وصلنا إلى بقعة هادئة تكاد تخلو من البشر باستثناء بعض العشاق وباعة التسالي والمشروبات. جلسنا على إحدى الأرائك الأسمنتية المتناثرة على امتداد الشاطئ. وبعد أن استرحنا قليلاً بادرني توفيق بالسؤال:

وعدتني بالحديث وهاأنذا بعد أن أطعمتك مستعد لأن أسمعك. قالها عبر ابتسامة عذبة.

قلت:

لكي أروى لك ما حدث معي وانتهى بي إلى الطرد من العمل في المنتجع ، لابد أن أحكى لك أولا عن بدايات لا تعرفها عنى قبل أن آتى إلى هنا.لم أنتظر إيماءته بالموافقة حين تدفقت كلماتي وكأنها فيضان لا يمكن حبس تدفقه خلف سدود أو أقنعة أو حواجز. رحت أسرد وكأني أدلى باعتراف أمام قاض أو كاهن:

حين علمت بفشلي في الامتحان للمرة الثانية ، أحسست أن لا مكان لي بين المتصارعين على النجاح ، فكرت في الانتحار والتخلص من عالم لا شيء فيه سوى اللهاث المحموم وراء أشياء لم تعد لها في نظري أدنى قيمة ، اختمرت في رأسي فكرة الموت ، لماذا لا أذهب أنا إليه ، لماذا أنتظره ؟ وهل لابد من هذا العذاب في رحلة حياتنا القصيرة انتظارا لمجيء ملك الموت ؟

رحت أختلس الجلوس إلى مكان منعزل على الشاطئ لأناقش قراري من كل جوانبه ، لم يكن هناك ما يؤرقني

سوى خوفي من الأحزان التي قد تعصف بروح أمي المريضة. كان اهتمامي بمصيرها من بعدي يأخذ من تفكيري الجانب الأكبر وأنا في لحظات عزلتي ، كيف ستتدبر أمرها بعد رحيلي خاصة وأن شقيقي الأكبر ذهب إلى أمريكا في بعثة علمية ولم يعد، وصارت أخباره شبه مقطوعة عنا، وشقيقي الأصغر تزوج امرأة مطلقة تكبره بخمس عشرة سنة، وأخذته ليعيش معها ويعمل لديها في مدينة أخرى.

مع تكرار خلوتي إلى ذلك المكان المنعزل بدأت أشعر بها ، كانت هي الأخرى تأتي كل يوم ترافق أمها التي علمت فيما بعد أن الأطباء قد نصحوها بضرورة هذه الرحلة اليومية بعد أن أصيبت بمرض في القلب ، فاختارت هذا المكان لبعده عن زحام المدينة ، ولندرة تردد الفضوليين عليه ، كانت صبية ذات جمال من نوع خاص. لم تكن فاتنة بالمعنى الذي نتحدث عنه نحن الشباب، ولكنها كانت تتمتع بملامح آسرة، جذبتني إلى التطلع فيها رغما عني. وجه دقيق التفاصيل يبعث إلى الروح ومضات سكينة يصعب وصفها، وعينان سوداون تشعان بريقا يقتحم الفؤاد.

كانت هي الأخرى قد بدأت تشعر بوجودي على الشاطئ أصيل كل يوم ، لم أكن أعلم أن مظهري يوحي بما كنت أمر بـه في تلـك الأيام إلا حين وجدتها بعد أن تبادلت مع أمهـا حـديثًا هامسًـا لم أسمع شيئا منه ، قادمة نحوي .... كـان إحسـاسي بالفشـل قـد جعلني أشعر بتفاهتي مقابل أي كائن ، وقفت أمامي وقد بـدت على وجهها رغبة صادقة في معرفة سر تـرددي وحيـدًا عـلى هـذا المكان .

- ماذا بك ؟ .....

سألتني بلا مقدمات وكأني صديق تعرفه جيدًا .

لم أنظر نحوها ، ودون أن أرفع عيني من عـلى صـفحة النهـر المنساب، قلت بعصبية واضحة :

- لا شيء ، لا شيء .

ألحت في سؤالها. وجدتني مضطرًا لأن أرفـع رأسي ، التقـت نظـراتي الشـاردة بعينيهـا المشـعتين ببريـق الحيـاة في أحـلى ينابيعها .

- قلت لك لا شيء .

هكذا تمتمت بصوت يعلوه الانكسار.

جلست إلى جانبي بعد أن تبادلت نظرة مع أمها الجالسة على بعد أمتار قلائل .. قالت :

- لماذا إصرارك على إنكار ما تعاني ؟

قلت :

- قصتي طويلة ، لا داعي لأن ترهقي أذنيك بسماعها .

قالت بإصرار :

- أريد أن أسمعها .....

قلت بلهجة امتزج فيها اليأس بالتحدي :

- تافهة ، تهمني أنا فقط من كل هذا العالم ....

لم يفارقها أصرارها على أن تعرف، فقالت :

- سأقول رأيي بصراحة بعد أن تروي لي .....

قلت:

- فشلت للمرة الثانية في الامتحان ... أمر عادي ، أليس كذلك ؟

كانت تتطلع إلى وجهي بنظرات امتزج فيها العطف بالفضول بمعانٍ إنسانية أخرى ، ثم قالت :

- وماذا بعد ؟

- الإحساس بالفشل يحاصرني من كل اتجاه .

هكذا أجبتها بطريقة تحمل نبرة يأس واضحة.

همست وابتسامة عابرة على ملامحها:

- أين هي القصة الطويلة ؟

اعتلت وجهي علامات الغضب وأنا أقول وكأني أشرح لنفسي :

- حين يحاصرنا الفشل في مرحلة مبكرة من حياتنا ، يحيلنا إلى كائنات عاجزة ... هل هناك أشد مرارة من إحساس الكائن بالفشل ؟

أن أرسب في امتحان أو أكثر ، أمر عادي ، أعرف أن هذا ليس بالأمر الجديد أو الخطير ولكن ما أتي بي إلى هنا ، أمر مختلف، إحساس شعرت أنه يستعبدني.. إحساس بالفشل. ... الأمر إذن

ليس مجرد تلميذ وامتحان وتكرار محاولات ، لا، إنه الوصول إلى مرحلة الإحساس بعدم جدوى أشياء كثيرة من بينها وجودي ذاته ... ما فائدة وجود كائنات فاشلة في هذا العالم ؟

بدأت تنصت إلى كلماتي باهتمام واضح ، أحسست بالفضول والعطف في نظراتها وقد تحولا إلى رغبة في مشاركتي معاناتي ، ثم همست :

- ولكن ، أليست الحياة ... بمجملها رواية فاشلة ؟

قلت :

- أتفق معك بدليل أنها تنتهي دائما بالموت ، ولكن يستطيع الإنسان في مراحل متعددة من رحلة فشله الكبرى أن يخلق لحظات يعيش خلالها أوهام النجاح ، وهذا ما فشلت فيه حتى الآن .

ثم ساد صمت قطعته هي متسائلة :

- وجدوى مجيئك إلى هنا ؟

قلت بلا تردد :

- فكرة تراودني وصرت شبه متأكد أن لا حل بدونها ، أن أضع حدا لحالات الفشل المتلاحقة .

اقتربت منى لتغمرني أنفاسها القريبة بإحساس لم أعرفه من قبل، طال بيننا الحديث ، كنت حتى لقياها لا أجد من يسمعني ، صحيح أنني سمعت من كل الذين يهمهم أمري كلمات المواساة عقب ظهور نتائج الامتحان ، ولكني كنت في حاجة إلى من ينصت لصوت الجرح النازف في أعماقي ، وكانت هي .

تعددت لقاءاتنا ، استطاعت أن تزيح الكثير من الغيوم التي كانت قد خيمت على مرآة روحي ، بدأت أعيش لحظات جديدة أشعر معها أن ثمة خطوات يمكن أن أخطوها قبل الوصول إلى الموت ، قالت لي ذات يوم : حين يصبح طريق الحياة أمامنا قفرا من كل أمل ، فيجب أن نبحث عنه داخل ذواتنا ، فالإحساس بالسعادة لا تصنعه الحقائق الملموسة بقدر ما تزرعه أوهام الاقتناع ..... اختلفنا واتفقنا حول أمور كثيرة منذ لقائنا الأول ، وعلى مدى ثلاث سنوات وقفت خلالها إلى جانبي ، استطعت أن

أؤدي الخدمة العسكرية وأن أتقدم للامتحان للمرة الثالثة ، وان أنجح رغم ما مررت به من ظروف قاسية .

ثم انتسبت إلى قسم إدارة الأعمال في أحد المعاهد ، تأكدت أن المرأة – هذا المخلوق الجهنمي – عندما تعطي الحب فإنها تمنح معه أشياء كثيرة لا تقف عند مجرد تجديد عشقنا للحياة وتعلقنا بالأمل .....

ظللت أعيش قلق المحبين على مدى السنوات الثلاث ، وانتظرت طويلاً تلك اللحظة التي نجلس فيها معًا ، أنا وهي لنقرر الخطوة التالية ، ثم حين جاءت مع أصيل يوم من أيام الربيع البهية ، كنا نجلس في المكان الذي التقينا فيه أول مرة .... قلت لها :

– .... أديت واجب الوطن ، ونجحت في الامتحان ....

غمرتني بنظرة عاشقة ، ثم ما لبث وجهها أن ارتدى قناعًا من الجدية والوقار وهي تقول :

- أهنئك وأهنئ نفسي .....

تعلقت نظراتي بشفتيها في انتظار ما ستقوله بعد هذه الجملة ، ولكنها أطالت التأمل في الأفق المترامي خلف الشاطئ الآخر ، ثم إذا بها تعود إليَّ بصوت أحسست فيه بنبرة الأسى :

- الحب عندنا لم يزل مجموعة من قيود وسلاسل ... جحيم لا يطاق ....

ثم أردفت وقد تغيرت نبرة صوتها قليلاً :

- أفضل أن أعيش هكذا بنصف حب – أظنك تفهم ما أعنيه – على أن أعذبك بتبعات الحب الشرقي .

قلت وأنا أعبث ببعض من الحصى المتناثر على الشاطئ حيث نجلس :

- الحب لدينا تغلفه المرارة ولكنه رغم كل شيء يستحق أن نشقى من أجله ...

- ماذا تعني ؟ ....

سألت بوجوم .....

قلت :

- أعني أنني قررت إيقاف الدراسة مؤقتًا .
- وبعد ؟؟
- سأبحث عن عمل ، والعمل يأتي بالمال ، والمال يمنحنا الحق في ممارسة حبنا كاملاً. أعنى نستطيع أن نتزوج.

قهقهت بعذوبة ... ثم علت وجهها سحابة مفاجئة من الحزن وقالت بصوت هامس :

- بالمال وحده ، في هذا الزمن ، نصبح قادرين على أن نعيش حبنا ؟

ثم رفعت صوتها قليلا وهي تضيف :

- إذن سترحل إلى حيث يمكنك أن تأتي بالمال .... وعليَّ أن أحب ، واصبر وانتظر .....لماذا لا يمنحنا هذا الوطن ما نحتاج إليه، هل أجدبت أرضه أم أن جيلنا لم يعد لديه الجلد والصبر ليحقق ذاته بين أهله ومحبيه.؟؟

قاطعني توفيق الذي كان ينصت مشدوهًا :

- لولا رسالة الليلة وما حملته إليك ، لما كنت قد أخبرتني بهذه التفاصيل .

اعتدلت في جلستي وأنا أقول :

- كنت أفتقدك هناك .... وأنا في ذلك المنتجع الملعون أتعرض كل يوم لما يشبه المطاردة من عاهرة .

قال متعاطفًا :

- لماذا لم تخبرها من البداية بعدم جدوى محاولاتها ؟

- المرأة نادرًا ما تؤمن بعفة الرجل ... لقد علمت بقصة حبي مصادفة حين كنت منهمكا في تنظيف غرفة مكتبها ذات يوم ، وإذا بإحدى رسائل حبيبتي تسقط من جيب السترة التي ارتديها ، كانت هي في تلك اللحظة تجلس على مقعد بالقرب من باب الغرفة ، فأسرعت والتقطت المظروف الذي يحوي الرسالة من على الأرض قبل أن يبلله الماء ... أثار فضولها اسم حبيبتي المكتوب على ظهر الرسالة من

الخارج ، فانتظرت حتى أتت لحظة مناسبة ، ثم بدأت تستدرجني بأساليب ملتوية لتعرف من هي صاحبة الاسم الذي أحتفظ به ... أخبرتها بكل شيء ، لم أجد حرجًا في أن أحدثها عن حبيبتي .

ولكن منذ ذلك اليوم بدأت أشعر بتغيير كبير طرأ على أسلوبها في التعامل معي ، راحت تزيل الكثير من الحواجز التقليدية التي تفصل بين العامل ورئيسه خصوصا بعد أن أفضيت لها في أحد الأيام ببعض ما أحسه تجاه حبيبتي الغائبة ... أصارحك ، كدت اضعف في بعض اللحظات أمام فتنتها الطاغية، وفتنة المرأة هي سلاحها الذي تتوقع أن الرجل لا يمكنه الصمود أمامه أبدًا ....

بدأت تختلق اللحظات التي تجمعنا على انفراد وبدأت أقرأ في عينيها أشياء كثيرة حين كنا نجلس متقابلين على طاولة واحدة في النادي الليلي الموجود في الفندق بعد أن كانت قد حصلت لي على بطاقة خاصة تتيح لي ارتياد هذا المكان الذي كان ارتياده

مقصورًا على النـزلاء ، والعـاملين الـذين لا تقـل درجـتهم عـن مدير .

وذات مساء بينما نحن جالسين في ركـن معـزول مـن صـالة النادي ، وضوء أحمر خافت ينبعث من الجدار الذي نجلس قريبًا منه ، وبعد أن كانت قد انتهت من الرشفة الأخـيرة مـن الكـأس الذي كانت قد طلبته من النادل ، قالت وفي عينيها نظرة شاردة :

- عجيب أمرك ... عرفت الحب ، ولم تعرف الخمر ؟

ابتسمت وأخذت أحـرك زجاجـة الميـاه الغازيـة الموضـوعة أمامي والتي كنت قد طلبتها لنفسي ...أضافت :

- أتيت إلى هذا المكان لأهرب من إحساس كئيـب بالغربـة في مهرجان الحياة ، ففوجئت بأني غريبة أينما حللت ....

ثم توقفت برهة في انتظار كلمة مني ، ولكني ظللت أتاملهـا في صمت .

عادت إلى مواصلة الحديث قائلة :

- وحين رايتك ، توسمت فيك أشياء كثيرة ، انتشى في أعماقي إحساس كامن بأنه لم تزل أمامي فرصة في الحياة ، لم أهتم بكونك عامل نظافة وأنا رئيستك في العمل، فانا علمت من ملف خدمتك أن ما انتهى بك إلى هذا النوع من العمل هو ظروف الحاجة وليس قلة التعليم.

حاولت تلك الليلة أن أوقف الحديث عند هذا الحد ، وندمت على البداية التي انتهت بي إلى ما أنا فيه ، لم أكن أتصور أن أنانية المرأة تشتعل عندما تشعر بوجود غريمة حتى وإن لم تكن تعرفها ، ولكنها كانت في حاجة لأن تبكي وتتحدث ، قالت أنها عرفت الحب مبكرًا ، وظلت وفية لحبيبها على مدى السنين ، منحته كل شيء في واحدة من لحظات الهيام والضعف ، لم تندم ولم يتغير مذاق حبه في حياتها ، أيضا لم تكن تشك في دوام السعادة إلى ما لا نهاية ، ورغم أن عملها كمضيفة في إحدى شركات الطيران كان يحتم عليها التغيب في عواصم بعيدة لفترات تزيد عن أسبوع في بعض الأحيان ، إلا أنها كانت حين

تعـود في كـل مـرة تجـد حبيبهـا في انتظارهـا أكثـر شـوقا ولهفـة واحتياجا ، قالت إنها عاشت معه حلـما مـن المسـتحيل أن يبعثـه القدر في حياتها من جديد ، وذات مرة عادت من رحلتها ولم تجـد العاشق في انتظارها ، جن جنونها بحثـت عنـه في كـل مكـان. في النهاية علمت بالحقيقة التي نسجت مأسـاة حياتهـا ، فحبيبهـا في طريقه لاختيار زوجة (شرعيـة) تشـاركه حياتـه ، أمـا هـي فقـد اكتشفت أنها لم تكن سوى عشيقة له، بعد أن كان قد مزق وثيقـة زواجه (العرفي) منها منذ الليلة الأولى.

قالت أن تلك اللحظة كانت بالنسبة لها هي نهاية كـل شيء ، وضـاقت الـدنيا في وجههـا ، ولم تجـد مـا تسـتطيع أن تفعلـه في ظروفها تلك سـوى أن تهجـر عملهـا ، وتحـاول نسـيان الرجـل والجرح ، وأيضا الحب ، وكان العمـل مضـيفة في أحـد الملاهـي الليلية هو طريقها للتسلية ومواجهة مأساة الفراغ والفشل.

قالـت أنهـا تغـيرت تغـيرا تامـا بعـد مرورهـا بهـذه التجربة ... أصبحت فتاة ليل ... ترتدي ملابسهن فترى نفسـها

فتنه لا يقوى رجل على مقاومتها ... قالت أيضًا أن مذاقًا جديدًا للسعادة بدأ يعرف طريقه إلى حياتها ... وصارحتني دون أن تدري بسبب تأثير الكحول على مراكز الانضباط في كيانها ، صارحتني بنبع السعادة الذي اكتشفته ، قالت إنه الإيقاع بالرجل ثم تعذيبه بالهجر ... لم ينجح واحد من رواد الملهى في اصطحابها إلى شقته رغم كل ما كانت تمنحه من إيحاءات وتلميحات وهي تقاسمه المائدة وتفتح له زجاجات الخمر ... قالت أيضًا أنها بدأت تتعامل مع الرجال من خلال عيونهم المسلطة على جسدها فتكشف لهم كل ما هو متناسق وفتان عبر غلالات شفافة كانت تتعدى في فضاحتها ما تفرضه طبيعة المهنة ... ورغم كل هذا كانت قد قررت ألا تعطي جسدها إلا إذا أحبت ، والحب كما كانت قد بدأت تعرفه ليس سوى اختطاف رجل من امرأة ... قالت أنها طوال فترة عملها في الملهى لم تكن تعير اهتماما لرجل لا يضع خاتم الزواج حول إصبعه ، ففي هذه الحالة فقط تتفرغ لمطاردته حتى بعد انتهاء العمل في الملهى ، وإذا ما تحقق

هدفها ..... ووقع الرجل في شباك الوعود التي تنصبها حوله ، تتركه ليتعذب ، وتبحث عن ضحية أخرى ... قالت أنها عاشت فترة غير قصيرة على هذا المنوال إلى أن أحست بتفاهة ما تفعله وبالفراغ في أعماقها ومن حولها ... اكتشفت أنها في حاجة لأن تحب من جديد حبا صادقا حقيقيا ينتهي نهاية سعيدة تجمعها برجل يكون لها وحدها ، وإن كان لم يتحقق في حياتها هذا الحلم ، إلا أنه ظل يراودها بعد أن كان الملل قد عرف طريقه إلى حياتها ، وكرهت حياة الليل وترنحات السكارى ، فتوقفت عن العمل في الملهى ، وجاءت إلى المنتجع لتجد نوعا من السلوى في هذا النوع الجديد من العمل ... ورغم قسوة الصحراء المحيطة ، وعيون الرجال المتلصصة ، إلا أنها كما قالت ، استطاعت أن تتفهم الموقف منذ اليوم الأول ، ونجحت في إخفاء كل ما مضى من حياتها ، ووضعت على وجهها وسلوكها أقنعة جديدة تليق بالمكان وبطبيعة العمل ، وعند هذا الحد قالت .... "ولكن حنيني إلى رجل يداعب ورود جسدي لم يفارقني لحظة ...

حزنت حين اكتشفت أن فارسي لا يمكن أن يكون واحدًا من هؤلاء ... إنهم متبلدون لدرجة رهيبة ..." .

كانت اعترافاتها تتدفق بغزارة ... وحين تتحدث حواء من خلال جرحها تعري نفسها لدرجة تثير الشفقة أو التقزز ...

سألت نفسي وأنا أحملق داخل عينيها المشعتين بلمعان الرغبة وتأثير الخمر..

ترى ماذا تريد مني هذه المرأة...هي تبحث عن شيء ما ، لا تعرف ما هو ، لا أعتقد أنها تبحث عن حب من النوع الذي أعرفه بعد أن أخبرتني بأنها بعد أن توقع بالرجل في شباك حبها ، تتركه غير نادمة ، إنها امرأة غير عادية ، من ذلك النوع الذي لا يرضى بأقل من تدمير الرجل الذي تختاره ، لا بد أن تنتهي صداقتنا ، ومن الآن ، هكذا كان قراري مع نفسي- ونحن ننهض بعد أن كان الليل قد انتصف ، وخلا النادي إلا من قلة من النزلاء.

افترقنا عند الباب ، وفي طريقي إلى غرفتي وضعت الخطة التي تمكنني من النجاة ، وبدأت في تنفيذها مع صباح اليوم التالي ، وكان لابد أولا من أن أعيد أسلوب تعاملي معها كما كان في الأيام الأولى ، مجرد عامل نظافة ينفذ أوامر سيدته – رئيسة القسم – بطريقة آلية ، دون أن ينظر إليها سوى نظرة الاحترام الجامدة ، ثم رحت بعد ذلك أتعمد الهرب من كل لحظة تجمعني وإياها على انفراد سواء أثناء العمل ، أو قبيل انتهائه حيث يكون الوقت ملائما للاتفاق على لقاء في النادي الليلي ، بدأت تشعر ببرودي تجاهها ، وبالتغير الذي طرأ على أسلوب التعامل فيما بيننا والذي تعمدت أن أجعل منه حاجزا سميكا يبعدني عنها ... ولكنها لم تتركني وشأني ، بدأت تلعب ورقتها الأخيرة ... مسكينة ، يبدو أنها اعتادت التعرف على نمط من رواد الملاهي الذين لا تمتلئ قلوبهم فتوهمت أن لكل الرجال عمق واحد تتبدى ضحالته أمام فتنة امرأة ... قالت لي ذات مرة أثناء نقاش فرضته علي ، وضمنته واحدة من محاولاتها الماكرة : "...المرأة لا

تعـرف الوفـاء ، والرجـل بالنسـبة لهـا لـيس أكثـر مـن طفـل مغرور ..." ، كانت في تلك الأثناء تخوض معركتها ضد حبيبتي الغائبة ، ولما تأكدت خسارتها راحـت تلقـي بورقتهـا الأخـيرة ، والتـي ظلـت محتفظـة بهـا إلى نهايـة الشـوط ، دون أن تسـألني ، فالورقة التـي تملكهـا أي امـرأة هـي جسـدها ، إذا كانـت تجيـد اللعب ، فإنها لا تقدمه في اللحظات الأولى أبدًا.

تعددت المواقف التي كانت تفرض علي خلالها الحديث رغم إرادتي ، كانت عيناهـا تقـولان كـل شيء ، وأيضًـا لسـانها وجسدها ، ولكني ظللت أهرب وادعي الغباء ، إلى أن حدث ما كنت أخشاه ، واضطررت لحمل حقيبتي والخروج مـن المنتجـع مطرودًا حيث لم أجد من يمكن أن أذهب إليه ليسـمعني ويحمـل عن كاهلي جزءًا مما يعذبه سوى أنت .....

كان توفيق ينصت لكلماتي مشـدوها وكأنـه أمـام كـائن غريب ليس له به سابق معرفة ، وحين أحـس بـأني انتهيـت مـن قول ما أريد ، لاذ بالصمت لعدة لحظـات كـان خلالهـا يتـأملني

متفرسًا في ملامح وجهي ، ثم لم يلبث أن قال وقد اختلطت في كلماته معاني الشفقة والحب :

- إذن ستعود من جديد إلى دوامة البحث عن عمل ؟؟

قلت بثقة لا يشوبها إحساسي بالظلم والخوف :

- لا أحمل هَمًّا .....

ثم أردفت :

- من حسن الحظ أحيانا ، أن يكون الإنسان جاهلاً ، أقصد غير متخصص في مهنة بعينها تضطره إلى الركض وراءها دون سواها. وهذا ينطبق على حالتي، فلا أنا أنهيت دراستي، ولا امتهنت مهنة بذاتها.

- هيا بنا نعود،فأنا متعب طوال اليوم، وأنت أيضًا، والشاطىء بدأ يخلو من البشر....

قلت ذلك وأنا أنهض من مقعدي وكأني أصدر أمرا ولكن بطريقة مهذبة.

٧

كان ما أفضيت به إلى توفيق أشبه بحمل ثقيل أزحته عن كاهلي ذلك المساء ، فأحسست بالراحة وأنا أتمدد على الفراش بعد أن عدنا من المقهى .

رحت أفكر في كم هي صعبة معادلات حياتنا نحن الفقراء، غدًا أبدأ من جديد رحلة البحث عن عمل، صحيح أنني لا أدرى كم من الوقت سيمضى قبل أن أجد من يشترى جهدي وعرقي مقابل بضعة دنانير قد تكثر أو تقل، ولكن أيًّا كانت النتيجة يكفيني ما أشعر به من راحة الضمير. نعم بإمكاني العمل مجددا لدى ذلك المقاول .... آه ..... تذكرت .....لقد ظلت علاقتي به جيدة إلى آخر يوم، وكان يعاملني بطريقة لا تخلو من تقدير على خلاف طريقته الفظة مع الآخرين.

ظل الحوار بيني وبين نفسي- يدور في صمت إلى أن نطقت بكلماتي الأخيرة دون أن أشعر ، فتنبه صاحبي الذي كان يستلقي فوق الفراش الذي كان عبد الغني قد جلبه وأفرد له مكانا في

أحد أركان الغرفة بعد أن كنت قد أخبرته بأنني سأبقى في الفندق لفترة طويلة لم أحددها بعد.

حاول توفيق أن يشعرني بمشاركته إياي ما أعانيه من أرق بعد العشاء والحديث الطويل. ...

لم أكن أدرك أنه مازال هو الآخر مستيقظًا إلا حين قال :

- مالك تتقلب في فراشك ألست متعبًا بعد يومك الطويل؟؟

صدرت مني تنهيدة رغما عني دون أن أنطق بكلمة واحدة.

استوى جالسًا وقد امتدت يده إلى علبة سجائره الملقاة قريبا من طرف الفراش. كنا قد أطفأنا ضوء الغرفة عقب عودتنا من الخارج ، وتركنا النافذة المطلة على الشارع مفتوحة يتسلل عبرها شعاع ضوء من أحد الأعمدة المثبتة قريبا من باب الفندق ، الصمت يخيم على الغرفة ولا يقطعه سوى صوت مروحة كهربائية تتولى خلخلة كمية الهواء المحدودة والواصلة إلى الغرفة من جهاز التكييف الصحراوي البدائي الضخم عبر اسطوانات

تمتد من السقف وتخترق أحد جدران الغرفة منتهية بفتحة صغيرة يندفع منها هواء لزجًا مشبعًا ببخار الماء ..

أشعل توفيق سيجارته، وهو يقول :

- لتنسى يا صاحبي كل ما وراءك ، لا تحاول أن تتذكر. انظر إلى الخطوة التالية وحدد موطئ قدمك. لا تغرق نفسك في بحار الذكرى، وحاول أن تحيا ليومك وغدك لأنهما ببساطة هما الأمل..

- ماذا تعني ؟

سألته بصوت أقرب إلى الهمس .... قال :

- أعني أنك يجب أن تجعل من نفسك إنسانًا لا ذاكرة له ، أنت مطالب فقط بإيجاد عمل .

تأكدت أن كلمتي الأخيرة حين تذكرت المقاول الذي كنت أعمل لديه قد استرعت انتباهه دون أن يعرف بقية الحوار الذي كان يدور بيني وبين نفسي. قلت وأنا أستعيد ذاتي من الإحساس المتناقض بالخمول والأرق :

- كنت أتوقع أن تسألني عما تذكرت ، ما دامت كلمتي قد وصلت إلى أذنيك.

قال:

- المهم ليس التذكر المهم هو البحث عن عمل.

كدت أضيق بكلماته ، وحديثه الأقرب إلى الوعظ ، ولكنه أضاف :

- حبيبتك يا صادق ، ثم لاذ بصمت لم يدم طويلاً ، حيث أردف :

كلماتها حملت إلى وجداني إيحاءً غامضًا جعلني أشاركها حالة الخوف التي تحتويها ، سطورها تشع بصدق صوفي نادرًا ما عرفته امرأة .

- وماذا أفعل ؟

- سألته باستسلام ... قال :

- يجب أن تفكر في مجيئها إليك ، أو في ذهابك إليها .

- أنت تعلم أنني عاجز عن كلا الفعلين ، على الأقل في الوقت الحاضر .
- لا أريد أن أثير شكوك أو مخاوفك ، ولكني أخشى أن يسرقوها منك ..

سألته:

- ....وهل هذا هو ما يثير مخاوفك ؟

قال:

- المرأة مخلوق سهل الغواية ....
- حبيبتي نوع آخر من النساء ...

قلت بلهجة واثقة .... فعاد يقول :

- يا صديقي إنها امرأة وهذا كاف .... في كلماتها نبض حب صادق يريدك أن تنقذه من خطر مبهم ، لقد أحسست بأشياء كثيرة وأنا أتصفح رسالتها التي ناولتها لي لحظة دخولي الغرفة .....

قال توفيق ما لديه ، ثم أطفأ سيجارته التي كان قد أشعلها ، وعاد مستلقيا على الفراش ، وراح يغط في النوم بعد لحظات قلائل ....

وجدتني أعود إلى ما كنت قد تذكرته وأدى بي إلى أن أبدد صمت الغرفة بصيحة مكتومة أشبه بتلك التي أطلقها أحد العلماء حين سقطت فوق رأسه تفاحة أَوْحَتْ له بقانون الجاذبية الذي تغيرت بسببه معادلات كثيرة في حركة الأشياء...

تذكرت ماذا ؟

سألت نفسي وأنا أرقد مسترخيا على السرير الذي كان توفيق قد تركه لي احتفاء لي، وأصر على النوم فوق المرتبة القديمة التي كان عبد الغنى قد أحضرها وفردها على أرضية الغرفة.

كنت مهموما باستشراف المجهول حين هاجمتني ذكرى المعول الذي كثيرا ما أدمى يداي قبل أن أنتقل لأعمل في المنتجع إياه ... ذكرى مريرة ، ولكنها مثلت لي شعاع الضوء الوحيد الذي يمكن أن أتلمس من خلاله طريقي بدءا من صباح الغد ،

ذلك أنني قبل نجاحي في المسابقة التي عقدتها الجهة السياحية المسئولة عن إدارة المنتجع ، كنت أعمل لدى مقاول متخصص في هدم المباني الآيلة للسقوط ، أو تلك التي صدرت أوامر من البلدية بإزالتها لسبب أو أخر ... انتقاني المقاول ذات صباح من سوق العمل والذي لم أكن لأعرف الطريق إليه لولا أن قال لي رفاق الفندق المخضرمون :

مادمت لست من ذوي الاختصاصات ، فليس أمامك سوى أن تنطلق معنا في الصباح الباكر قبل أول خيط من خيوط الفجر إلى الساحة ، وحين سألتهم عما يقصدونه بالساحة ، حاول بعضهم أن يصفها لي ، ولكن آخرين كانوا يجلسون معنا تلك الليلة قاطعوهم قائلين :

غدا سيرافقنا الأستاذ إلى هناك ، وسوف يرى بنفسه كل شيء ... إذن لا داعي للوصف ..." لا أدري لماذا يصر الجميع حتى هذه اللحظة على أن يسبقوا اسمي بلقب (الأستاذ) ، هل لأن مظهري يذكرهم بصفات معينة ارتبطت في أذهانهم

بأشخاص آخرين يملكون أمرا أو نهيا ؟ ...ربما.. المهم أن الأيام أكدت لي فيما بعد أنهم لا يسخرون مني حين ينادونني باسمي مسبوقا بهذا اللقب وكأنه لازمة لا يصح نطقه بدونها... حتى عبد الغني الذي آواني منذ الليلة الأولى ، لم يستجيب لتوسلاتي بأن يعاملني كابن له .

كان ذلك بعد أيام قليلة من وصولي إلى هنا. وبعد أن تعرفت على عدد لا بأس به من النزلاء الذين هم جميعا من العمالة الفقيرة التي تقطن مثل هذه الأماكن، وجميعهم في أعمار متقاربة قريبة من عمري، لذا لم أشعر بينهم بالغربة، بل على العكس، أحسست بينهم بالأمان الذي يحققه الانتماء إلى فصيل من البشر أيا كانت ظروف أفراده. في أول يوم لي إلى سوق العمل، أيقظني بعض الرفاق مبكرا، وانتظروا حتى خرجت معهم في رحلة البحث عن رزق يوم جديد.وصلنا إلى الساحة قبل انبلاج ضوء النهار. كانت الساحة تعج بالعشرات من شباب يحملون معدات بسيطة

تستخدم في عمليات الهدم والبناء ...تأملت المشهد جيدًا، ثم استدرت إلى رفاقي قائلا :

الآن عرفت كل شيء ....

كانوا قد أخبروني أنهم حين يصلون إلى الساحة ، يتفرقون كل في اتجاه بحثًا عن فرصته ... لذا لم أتردد في أن أقول لهم : "أعتقد أنني الآن في الساحة ، وأن هؤلاء – مشيرًا إلى الجموع المتراصة على الأرصفة- هم رفاقنا ، وهذه السيارات التي بدأت تتوافد على الساحة ، وتقف بعيدًا ليهبط من كل منها رجل أو اثنين ، هي سيارات المقاولين...

همهم القريبون منيبا فهمت منه تقديرهم لذكائي وسرعة بديهتي ، ثم أضاف واحد منهم :

-المهم، أن تنجح في إقناع أحد المقاولين بقدراتك حتى يفضلك على سواك ... كدت أسأله عن الكيفية التي أستطيع بها إقناع المقاول أو إثارة انتباهه ، هل أؤدي أمامه بعض التمارين الرياضية ؟ هل أنزع ملابسي واكشف عن قوة عضلاتي كلما

اقترب مني أحد هؤلاء الذين يتفرسون في وجوه الجموع للانتقاء من بينها ؟

قال أحدهم وقد بدا عليه نوع من التبرم .. كأنه قرأ ما يدور بخلدي من تساؤلات :

ليس هناك ما يمكن أن تفعله سوى أن تختار لنفسك مكانًا بين الجموع وتنتظر ... المهم أن تقف في مكان ظاهر حتى يراك المقاولون.

ثم تركوني ، واتجه كل منهم إلى مكانه المعتاد بحثًا عن فرصته .

كنت محظوظًا وفق مقاييس العمل في السوق ، فقد جاءتني الفرصة بعد نصف ساعة فقط من وقوفي على أحد أرصفة الساحة ، الكثيرون يمكثون من الخامسة وحتى الضحى في انتظار مقاول ، وكثيرا ما يعودون من حيث أتوا دون أن يفوزوا بقوت يومهم ، أما أنا فقد فوجئت برجل يقترب من الرصيف ويشير نحوي بأصبعه ، لم أفهم معنى إشارته إلا حين وجدت الواقفين

على الرصيف يندفعون نحوه في مشهد حيواني مقزز ، كل منهم يسعى لأن يكون أول الواصلين إليه حيث يقف على بعد أمتار قلائل ، وفي سبيل وصوله أولا، لا مانع لديه من أن يقضي على الآخرين الذين يزاحمونه ، لو استطاع ...

وقفت أتأملهم دون أن أبرح مكاني ، ارتسمت الخيبة على وجوههم حين فوجئوا بتنكر الرجل لهم بعد أن كانوا قد أحاطوا به من كل اتجاه. بدأوا يعودون إلى أماكنهم على الرصيف تباعًا وقد علت وجوههم علامات الانكسار. مضت لحظات ثم رأيت الرجل يشق لنفسه طريقًا من بينهم منتقلاً إلى مسافة أبعد قليلاً، وفي غفلة منهم، حيث كانوا قد بدأوا يتطلعون نحو مقاول آخر ، اقترب مني وهو يهمس :

- اتبعني إلى السيارة، فانا في حاجة إلى عامل واحد ...

كان جهلي بلعبة المزاحمة والركض وراء المقاولين ، والذي بدا من خلال وقفتي الجامدة، ونظراتي المندهشة إلى ما يجري أمامي، هو ما جعل صاحبنا بخبرة المقاول ، وبعينه التي لا تخطيء مصدر ربحه يختارني من بين هؤلاء القدامى، والذين يجيدون المساومة

على الأجر، ويعرفون كيف يعادلون بين الجهد الذي يبذلونه ، والأجر الذي يتقاضونه رغم أنف المقاول.

صعدت إلى جانبه في سيارته، وفى الطريق شرح طبيعة العمل الذي سأقوم به ، وكان مما قاله لي وجعلني أشعر بشيء من الاطمئنان :

- إذا أثبت كفاءة في العمل ، فلن تكون في حاجة إلى المجيء للساحة مرة ثانية ، العمل لدينا لا يتوقف ، وبالتالي يمكنك أن تستمر.

كان ذلك هو ما حدث بالفعل طوال الفترة التي سبقت انتقالي للعمل في المنتجع خارج العاصمة.

شعرت بكثير من الارتياح وأنا أتذكر كل هذا، الأمر الذي جعلني استسلم لنعاس كان قد بدأ يداعب جفوني.

قلت لنفسي وأنا أدفن رأسي أسفل الوسادة :

- أحيانًا يمكن لذاكرة الإنسان أن تحتفظ بشيء مفيد .

٨

في الصباح الباكر أيقظني توفيق بعد أن كان قد أعد كوبين من اللبن ووضعهما على الطاولة القريبة من فراشي ... قال وهو يقضم قطعة خبز مع رشفة اللبن : "سأحاول اليوم أن أتوسط لدى صاحب المخبز من أجلك ، ربما يكون في حاجة إلى عامل توزيع ، كنت قد اغتسلت ، وارتديت ملابسي قبل أن أجلس إلى الطاولة لمشاركته كوب اللبن ، ورغيف الخبز الذي كان قد شطره إلى نصفين ، لم أجد ما يدعوني إلى كتمان ما قررته قبل أن أنام ، وبعد الحوار الطويل الذي انتهى بي إلى أن أتذكر عملي القديم .... فقلت بلهجة الواثق :

- لا داعي لأن تعرض نفسك لمذلة السؤال من أجل مساعدتي ، سأعود إلى عملي القديم ، ثم أردفت : "ليلة البارحة تذكرت أن بإمكاني العودة إلى المقاول الذي كنت أعمل لديه .... لا أشك في ترحيبه بي ، فهو دائما في حاجة إلى عمال ، وبالنسبة لي، فحتى آخر لحظة ظل يعتبرني من أكثر الذين عملوا لديه إخلاصا وتفانيا.

كنا قد انتهينا من الرشفتين الأخيرتين من كوبي اللبن الموضوعين أمامنا ، فنهضنا معا ، ثم افترقنا عند باب الفندق .

أخذت سمتي نحو البناية التي أعرفها في أحد الميادين الصغيرة بالطرف الجنوبي من العاصمة ، التي كنت إبان فترة عملي الأولى أتردد عليها في نهاية كل أسبوع مع رفاق العمل ، نتقاضى أجرنا ، ونتلقى تعليمات الأسبوع التالي من حيث مواقع العمل، وطبيعة المباني المراد هدمها ... إلى غير ذلك من الأوامر التي كان يلقيها علينا صاحب العمل من خلف مكتبه الضخم ، والذي تغطيه الأتربة وفضلات الطعام طوال الأسبوع وإلى أن يتطوع أحدنا بتنظيفه .

البناية من طابق واحد يتكون من غرفتين ، كل غرفة تطل بواجهتها على شارع مستقل ، إحداهما علقت عليه لافتة "مقاول لهدم المباني وإزالة الأنقاض" أما الثانية ، والتي تطل على شارع آخر أقل حركة ، فلا تحمل واجهتها لافتة ، أو أي علامة مميزة ، ولكن كان يمكن للمارة أن يروا عبر بابها الذي لا يغلق إلا

بعد غروب الشمس بساعتين تقريبا ، بعض المقاعد القديمة والمتناثرة في الزوايا ، أما في صدارة الغرفة ، وفي مواجهة من يدخل إليها من الشارع ، فقد وضع مكتب خشبي قديم ، وخلفه مقعد حديدي ... كان الرجل نادرا ما يجلس في هذه الغرفة ، فأعماله كلها يديرها من الغرفة الأولى، ولكن كان قد أثار فضولي إهمال الرجل لهذا الجزء من مكتبه حين أتيت لأتقاضى أجرى الأسبوعي أول مرة. سألت بعض الرفاق ، فأخبروني أنه يعمل حانوتي بالإضافة إلى عمله كمقاول. قالوا أن سكان الحي والأحياء القريبة يعرفون الطريق إلى هذه الغرفة. حين يموت واحد منهم ويفكرون في إعداد القبر وإجراءات الدفن، ساعتها يأتون إلى صاحبنا الذي يجبر لحظتها على الانتقال من الغرفة الأولى إلى الغرفة الثانية والتي، كما هو معروف عنه، يتشاءم من مجرد الجلوس فيها ، أما كيف يعمل في المهنة ويتشاءم منها ، فلهذا قصة أخرى. ذلك أنه تسلم هذه المهنة بالميراث عن والده دون أن تكون لديه أدنى خبرة. كل ما يعرفه هو مقدار ما تدره

من مال. لذا فبعد أن مات والده، وبالرغم من أنه كان قد اختار لنفسه مهنة أخرى، إلا أنه لم يمانع في الجمع بين المهنتين مقاول وحانوتي، خاصة وأنه كان قد ورث عن والده، فريق العمل المتخصص، وكل ما عليه هو أن يتقاضى المبلغ الذي يحدده، ثم يقوم العمال بباقي المهمة. كان يقول لمن يسأله عن استمراره في هذه المهنة ما دام يتشاءم من العمل فيها.

التجارة في خدمات الموتى مربحة. لماذا أتركها طالما دوري لا يتعدى تسويق جهود العاملين الذين ورثتهم عن والدي.

كان مما رواه لي الرفاق عن الرجل أيضا، أن البعض من أقارب الموتى اقترحوا عليه أن يضع سعرًا موحدًا لخدماته ما دامت أجور العاملين لديه من حفاري قبور وغيرهم ثابتة لا تتغير وفقا لثراء الميت أو فقره، ولكنه رفض ذلك بإصرار مستغلاً احتكاره للمهنة وعدم وجود منافسين له في المنطقة. بل إنه كان يقول متندرًا:

إذا كانوا في حياتهم غير متساوين ، فكيف تطلبون مني أن أساوي بينهم بعد أن يموتوا ، ثم يضيف : لو استطعتم توحيد أسعارهم في الحياة تعالوا نتفق على توحيد سعرهم في الموت .

حين وصلت إلى البناية ، وجدتها كما هي ، لم يتغير شيء فيها ... اتجهت مباشرة إلى غرفة صاحبنا التي يجلس فيها طوال النهار ... وجدته جالسا خلف المكتب إياه وأمامه مجموعة من أوراق قديمة يقلبها بيده المحروقة والتي لا تتوقف ارتعاشتها إلا حين يدسها في أحد جيوبه ... فاجأته بوقوفي أمامه بعد أن كنت قد اجتزت الباب الخارجي الذي يجلس في مواجهته ، فرفع عينيه من على الأوراق مغتصبا نصف ابتسامة صفراء هي أقصى ما يمنحه لأقرب الناس إلى قلبه ... ثم أشار علي بالجلوس إلى أن ينتهي من قراءة إحدى الأوراق ، بعد لحظات ترك ما أمامه والتفت إلى ليعاتبني على ترك العمل في المرة الأولى وهو الذي كان قد هنأني وقتها وتمنى لي التوفيق في الوظيفة الجديدة. المهم أنه مازال يتذكرني، ومازال كما أظن يحتفظ لي بذلك النوع من

التقدير الذي يرضى شيئا من كبريائي، رغم أنني اعلم انه تقدير زائف مبعثه كوني ربما كنت أفضل العمال لديه واقلهم أجرا، وأنني أبدا لم أطالبه بزيادة هذا الأجر رغم علمي بالفارق الكبير بيني وبين الآخرين ، سألني عن غيبتي، فرويت له نتفا من بعض ما مر بي، ثم سألته عما إذا كانت لديه فرصة عمل لي أو إذا كنت أستطيع العودة إلى عمل القديم في عمليات هدم المباني.

علت ثغره ابتسامة خفيفة ، وهو يشكو ضخامة عدد العمال ، وزيادتهم عن حاجته الفعلية في هذه الأيام ... و... وقبل أن يستطرد في شكواه وجدني أنهض من مقعدي وأهمُّ بمغادرة الغرفة ، كنت قد بدأت أشم رائحة المساومة في كلماته ، استوقفني قبل أن أذهب وهو يردد عبارات الاعتذار. قال أنه لا يقصد حرماني من العودة إلى العمل ، فقط يريد أن يشرح لي بعض الظروف التي طرأت على السوق، ثم امتدت يده نحوي بورقة صغيرة وهو يضيف :

إليك بهذا العنوان، ستجد زملاءك يعملون هناك منذ الصباح..

خرجت إلى الميدان أبحث عن أقرب الطرق التي توصلني إلى موقع العمل. كانت الورقة تحمل بالإضافة إلى العنوان رسمًا توضيحيًا أشبه بخريطة صغيرة تحدد لي كيف أصل إلى المكان .... اجتزت بعض الحواري والأزقة المتفرعة من الشارع القريب من الميدان ، ثم انتهيت إلى شارع جانبي يتميز ببناياته العتيقة، شاهدت الأتربة والغبار يتصاعد من إحدى تلك البنايات على بعد أمتار، سرت على مهل وأنا أتوقع أن هذا هو موقع العمل. وحين اقتربت من المبنى المتهدم جزئيًا لمحت عمال الهدم ومن بينهم بعض زملائي القدامى، الذين تعرفت عليهم بالرغم من بعد المسافة وكثافة الغبار الذي يتصاعد من حولهم مع ضربات معاولهم. هاهم رفاقي، ولكن اختفى بعضهم وحل آخرون محلهم، تثاقلت خطواتي وأنا أقترب أكثر من موقع العمل.

كنت طوال الطريق في حوار صامت مع ذاتي:

لماذا كل هذا الإحساس بالتعاسة بعد أن حصلت على ما كان أقرب إلى الحلم ليلة البارحة ؟ ألم تغمرني السعادة لمجرد أني تذكرت قبل أن أنام إمكانية عودتي إلى هذا العمل ؟ لماذا إذن يحتويني هذا الحزن وأنا أقترب من أحد جوانب البناية حيث أبدأ العمل لتدور عجلة الأجر اليومي من جديد ؟

ثم ماذا ؟ ... آه ، نسيت أنني عاشق ، ونسيت أيضا أن العشق في قلوب الفقراء هو سر عذابهم ، تولد في أعماقي وميض أمل حين تذكرت حبيبتي والعشق ، والفقر ، وإذا بأحد الرفاق يمطرني بترحابه وهو في موقعه أعلى البناية منتشلاً إياي من زحام أحزاني ... رفعت بصري نحوه ، ها هي الأتربة تكاد تخفي ملامحه ، ويده القوية تقبض على المعول الذي أتكأ عليه متوقفا عن العمل بغرض الترحيب بي .

رفعت يدي ملوحا في حين ارتفع صوتي بضحكة مغتصبة حاولت بها الاستعاضة عن حديث قد لا يصل إلى أذنيه

أو آذان الرفاق الآخرين الذين تنبهوا لوصولي فارتفعت أصواتهم بكلمات لم أستطع تبين مفرادتها ولكني استطعت أن أفهم من مجملها أنهم يرحبون بانضمام إليهم.

اقتربت منهم وأنا أصعد الدرج المتهدم. كانوا قد توقفوا تماما عن العمل حتى تخف حدة الغبار المتطاير ويستطيعون الترحيب بى. تبادلنا السلامات على عجل، ثم راح بعضهم يؤنبني على العودة إلى هذا العمل القاسي، خاصة في فصل الصيف. لم أبد اهتماما لما يقولون وان كنت أبديت تقديري لبواعثهم.

عدت إلى أسفل البناية لأستظل بأحد الجدران التي لم يأت عليها الدور في الهدم بعد. بدلت ملابسي- بملابس العمل التي كنت أحملها مع معول صغير في حقيبة أعطاني إياها أحد الزملاء في الفندق. لم تمض سوى دقائق معدودة وإذا بي أتحول إلى كائن آخر، نسيت أحزاني بغموضها وقسوتها، واندمجت بكياني كله في لحظة الحاضر حيث الغبار والأتربة وأصوات

المعاول وقطع الأحجار المتساقطة وقوالب الآجر المفتتة. آلة بدائية أجزاؤها مجموعة من رجال اختارتهم أقدارهم لهذا الشقاء رغم كل ما يتصفون به من معاني النبل وجمال الإنسانية.

صاح أحد الرفاق من أعلى البناية وكان فيما يبدو قد تبوأ إلى جانب عمله اليومي، مركزًا إشرافيًا ليتمكن من خلاله من توزيع العمل بين بقية الزملاء. أشار علي بالبقاء أسفل البناية والبدء بجمع الأنقاض التي تتطاير بعيدا خارج السياج الخشبي المحيط بها ، والذي يحدد منطقة الخطر بالنسبة للمارة في الشارع. أطعته دون تردد. ولما كانت خبرتي السابقة في هذا العمل قد علمتني كيفية اتقاء مخاطره، لذا لم أجد صعوبة في تفادي حجر يسقط هنا ، وطوبة تسقط هناك.

انقضى اليوم الأول دون أن أشعر بالإرهاق قدر ما عانيت من الملل ، وعند الساعة الثالثة ألقى الزملاء بمعاولهم وراحوا يهبطون واحدًا وراء الأخر عبر السقالة الخشبية المنصوبة بمحاذاة البناية ، والتي تم نصبها لتكون بمثابة بديل عن درجات السلم

الذي تهدمت درجاته بفعل عملية الهدم. التفوا حولي مرحبين. قال أحدهم وكان هو نفسه الذي أمرني بالعمل في إزالة الأنقاض :

لعلك مررت عليه بالمكتب ... بقصد المقاول. أومأت بالإيجاب. ثم أخذوا بالانصراف باستثناء واحد فقط كان يقيم معي في نفس الفندق الذي أقيم فيه. تبادلنا نظرة سريعة وبدأنا بدورنا نسير الهويني في الشارع الطويل ، مستظلين بظل الأبنية العالية اتقاء من شر الحر ، كان صاحبي فيما يبدو مرهقا ، فلم تنطق شفتاه بكلمة واحدة طوال سيرنا الذي استمر قرابة العشرين دقيقة قبل أن نصل إلى محطة الأتوبيس، وما أن جلسنا على المقعد الحجري أسفل المظلة القائمة على المحطة، حتى بدأت تعاوده نوبات الثرثرة التي اشتهر بها ، والتي كانت السبب في انصراف الآخرين عنه، سواء زملاء العمل أو الفندق ، قال :

- هل ضاقت الدنيا في وجهك حتى تعود لتعمل لدى هذا اللص؟

كنت أعلم أن سؤاله هذا بداية حديث لن أستطيع إيقافه، لذا تعمدت أن أختصر في إجابتي حتى أستطيع مجاراته دون أن أرهق نفسي فقلت :

- أولى بك أن تسأل نفسك هذا السؤال قبل أن تؤنبني ...

قال :

- لقد سألت نفسي ، ولكني اكتشفت أن هذا العمل فقط هو الذي يناسبني فأنا لا أعرف شيئا في الدنيا ، حتى قراءة اسمي أو كتابته ، فشلت في تعلمها، ثم لا تنسى أنني أتقاضى ضعف الأجر الذي كنت تتقاضاه.

قاطعته وقد بدا التبرم واضحًا في كلماتي :

- وأنا أيضا لا أجيد مهنة أو عملاً ...
- ولكنك تجيد القراءة والكتابة على حد علمي.
- نعم.
- إذن بإمكانك أن تجد عملا أفضل من هذا.

قلت محاولا إسكاته:

- أنا في حاجة لهذا العمل بعض الوقت حتى أقف على قدمي.

قال بعد لحظة صمت :

- يمكنني مساعدتك في إيجاد وظيفة تناسبك ...أنت إنسان متعلم

قلت بنوع من الامتنان:

- الوظائف المريحة من نوع ما تحدثني عنه، أجورها قليلة. لا تجدي معي، ونحن في غربتنا لا نبحث عن الراحة، وإنما عن الأجر الأعلى الذي يقصر من فترة اغترابنا.

تمتم وكأنه قد تذكر ظروفه وحاله وأمنياته التي يركض وراءها:

- صحيح أنهم لا يدفعون لنا إلا على قدر شقائنا.

لاحت على مرمى البصر سيارة الأتوبيس التي ننتظرها، فاغتنمتها فرصة لإنهاء الحديث، ونهضت من مقعدي متقدما إلى حافة الرصيف، وتبعني صاحبي الذي شغله الاهتمام بوصول السيارة فنسى ما كنا نتحدث فيه.

جلسنا متجاورين بعد أن دفع كل منا ثمن تذكرته إلى السائق الذي يؤدي عمل المحصل بالإضافة إلى قيادة السيارة ...

بـدا لي أنـه قـد شـعر بعـدم رغبتـي في مواصـلة الحـديث ، فـآثر الصمت ، وراح يتأمل الناس والأشياء مـن خـلال النافـذة التـي يجلس بجانبها ... أما أنا فلم أحاول الحديث مجددًا أو مواصلة ما كنا نتحدث فيه قبل صعودنا السيارة مخافة أن أمنحه الفرصة مـن جديد؛ ليعود إلى ثرثرتـه التـي يتنـازل في سـبيلها عـن إسـاءات الآخرين له.

كانت الشوارع في تلك الساعة شبه مقفرة من البشر باستثناء أمثالنا ممن لا تمنعهم قسوة الطقـس حـرًا أو بـردًا مـن السـعي في الأرض، لذا كانت المحطات خالية ولم يتوقف السائق سوى عند اثنتين أو ثلاث طوال الطريق منذ صعدنا وحتى هبطنا في الميـدان القريب من الفنـدق حيـث سرنـا صـامتين لعـدة أمتـار وإذا بـه يستأنف الحديث قائلاً :

- منذ جلسنا في السيارة ، وأنا أفكر في كيفية مسـاعدتك. عـلى كل حال ، بإمكانك أن تعمل معي في حفر القبور. أنه عمـل إضافي، لا يستغرق وقتا طويلاً، كما أنه أيضا لا يأتي كل يوم، ولكنه يضيف إلى أجرك مبلغًا محترمًا كل شهر.

ما رأيك لو حدثت المقاول في هذا الأمر نيابة عنك؟

قال ذلك وراح ينتظر ردًا مني.

نظرت نحوه وعلي شفتي ابتسامه أردت من خلالها الاعتذار له عن قبول العرض.

أطرقت واجما وأنا أحملق تحت قدمي. وجدتني رغما عني أرحل بعيدا إلى أعماق ذاتي المتسائلة دوما.. ما الحياة ؟ ما علاقتي بها؟ كيف عشقتها بعد أن كدت أقطع حبل الوصال في لحظة يأس. تذكرت حبيبتي التي من أجلها أتحمل عذابات الليل والنهار. صحيح أن السعادة يشتريها القادرون ، وهم وحدهم أصحاب الحق في شراء كل شيء، ولكني لم أزل أتذكر كلمات قالتها لتغير ما كان يتملكني من يأس واستسلام "... علينا أن نبحث عن السعادة داخل قلوبنا..." ما أشبه المحبين من الفقراء بكبار المتصوفة والمؤمنين، كلاهما يعايش الألم بروح متفائلة ، نعم أنا عاشق ولكني أبحث عن مبررات ما أنا فيه، كان صاحبي ينتظر جوابًا مني حتى يتواصل الحديث ، فلم أخيب رجاءه وقلت بعد لحظات صمت :

- لا أريد أن أعمل معك ، ولا أستطيع.

رمقني بنظرة أحسست معها أنه يستخف بمشاعري ، فأردفت :

- أنا عاشق للحياة ، وعاشق الحياة لا يستطيع أن يمارس هذا العمل حتى ولو مرة واحدة كل شهر.

ظل ينظر نحوي وقد ارتسم البله على محياه فوجدتني مضطرا للاسترسال في حديثي قائلاً :

- صحيح أن الموت حق علينا وهو آت لا محالة ، ولكني أرى في شبحه القادم نهاية حزينة ، لأشياء كثيرة أحببتها رغم كل ما يكتنفها من عذاب.

كنا قد اقتربنا من باب الفندق حين توقف لمصافحتي مستأذنًا في الذهاب إلى المطعم القريب لتناول طعامه ، صافحته ثم افترقنا .

عدت إلى الغرفة لأجد توفيق، وقد أعد طعام الغذاء، ووضعه على الطاولة ثم تمدد على الفراش ينتظر وصولي ، تبادلنا تحية سريعة ، ثم ابتدرني بابتسامة صافية وهو يسألني عما إذا كنت قد وفقت في إيجاد عمل. رويت له مختصرًا عن رحلة يومي وما تم فيها، ثم جلست على طرف الفراش وقد اعتلت ثغري ابتسامة جعلت رفيقي ينهض من رقدته وهو يقول :

- الغرقى "أمثالنا" في بحار الفقر يَجدُونَ في أحقر الأعمال ما يجده الغريق في قشة سابحة على سطح الأمواج التي يصارعها ، كلانا يصارع من أجل البقاء.

لم أنبس بكلمة فأستمر توفيق وكان قد اقترب من الطاولة جاذبا إياها قرب الفراش استعدادًا لتناول الطعام :

- أوحت إلى السعادة التي ألمحها ترتسم على محياك بهذه المقارنة ، لقد تبدل حالك بين اليوم والبارحة بالرغم من أنك لم تحقق سوى العودة إلى جحيم كنت قد هربت منه لفترة ، ثم رحنا نتناول طعامنا في صمت.

٩

راحت حركة الزمن تمضي برتابة وبطء بعد الأيام الأولى من انخراطي في العمل ، ورحت من جديد أعاني من المذاق المر لانتزاع ورقة جديدة كل صباح من كتاب عمري ، فها هو رصيد أيامي يتناقص ، ورحيق شبابي أسكبه بين الأطلال والخرائب كأحد ذكور البوم تعيسة الحظ ، إشراقة الشمس بالنسبة لي ، تعني أمرا إلهيا بضرورة الانضمام إلى صفوف القطيع الذي دفنت طموحاته ومعها أحاسيسه منذ أزمنة غابرة ، أبقى في عداد الآلات طوال النهار ، حتى إذا ما جاء الليل، كان بالنسبة لي واحتي وعالمي ومملكتي. أعيش معه لحظات سعادتي النادرة خاصة حين نتحلق حول طاولة صغيرة في غرفة عبد الغني نحتسي الشاي ، ونتسامر في محاولات بدائية للهروب من شبح النهار وعذاباته ، وبتوالي الأمسيات والليالي ، وجدتني أتحول رغما عني إلى مستمع جيد لكل أنواع القضايا والهموم التي يطرحها الزملاء في جلساتهم ، نادرا ما

تحدثت عن حالي ، ولكني كنت أنصت باهتمام يصل أحيانا حد التكلف إلى ما يطرحه زميل أو آخر ، ومهما كانت تفاهة الموضوع ، فأنني أبدي رأيي فيه بمنتهى الجدية ، وأحاول أن أجعل من يحادثني يشعر بي وكأني أشاركه انفعاله دون مجاملة ، ولعل هذا هو السبب الذي من أجله أحبني الجميع وامتدحوني في حضوري وغيابي ، قالوا عني "واحة تستريح في ظلها القلوب المتعبة" ، وقالوا أيضا "الأستاذ" تقديرا لسداد رأيي حين يعرض علي أحدهم مشكلة ما وأحاول مساعدته على إيجاد حل لها ، رغم كل هذا ، إلا أنني أعترف هنا بما لم أستطع أن أصرخ به في وجوههم ، فأنا أستحق كل ما غمروني به لسبب بسيط وهو أنني أصغي لثرثرتهم وتفاهتهم دون أن أشيح بوجهي عن واحد منهم أيا كانت روايته ، حتى ذلك الثرثار الذي يسخرون منه جميعا ، أحاطني بحبه بعد أن وجد عندي ما لم يجده لدى الآخرين ، الإصغاء دون ملل لتفاهة أحاديثه ، ومع تكرار الأيام والوجوه والأحداث ، راح شعوري

بالغربة يتزايد، اكتشفت أن صمتي في حضورهم لم يكن سوى تعبير سلبي عن حاجتي لأن أتألم بصوت عال ، رحت أقول لنفسي:

هؤلاء الرفاق من قاطني هذا الفندق، وممتهني هذه المهن المتواضعة، لا يشعر بهم أحد، ربما هم ملح الأرض وسواعد الأوطان التي تبنى وتعمر، ولكنهم في واقع الأمر لا يملكون من مصائرهم شيئا. ولا يملكون لأمثالي ضرا ولا نفعا، إذن لا جدوى من أن أعري مشاعري أمامهم وأتحدث كما يتحدثون، لن يفهمني أحد منهم، كما أن همومي وان كانت في ظاهرها هي همومهم، إلا أن عالمي وأغوار ذاتي تختلف عن عوالمهم.

لم أجد سوى الليل رفيقا يصغي لصوت جرحي. كنت أختلس ساعة أو أكثر أو أقل لأختلي بنفسي، أحاورها وأتحدث إليها. أما باقي الوقت، فقد كنت غالبا ما أجد نفسي- مجبر على قضائه في غرفة عبد الغني مع الزملاء رفاق السكنى والعمل .

من المصادفات العجيبة أن الوحيد الذي استطاع أن ينفذ قليلا إلى ما تحت سطح مشاعري هو صاحبي الثرثار الذي يشاركني العمل لدى المقاول، اكتشفت لديه قدرة عجيبة على قراءة انفعالاتي من خلال وجهي حين أراه ، وبينهما هو منهمك في رواية واحدة من قصصه السخيفة ، يتوقف عن السرد فجأة ليسألني : ماذا بك يا صادق؟ أراك تتظاهر بالإصغاء بينما عيناك تشيران إلى وجودك في مكان بعيد؟ وحين اعتذر معتدلا في جلستي ، غالبا ما يتوقف عن الحديث ويدعوني إلى تغيير المكان أو تدخين سيجارة ، أو غيرها من الأمور التي يتوهم أنها قد تسري عني. كان هو الوحيد الذي ينافس رفيق غرفتي، توفيق، في القرب من فهم عالمي الخاص.

أحببته رغم عيوبه التي لا يراه الآخرون إلا من خلالها، أحسست من خلال اهتمامه الزائد بي حين أكون حزينًا أو عابسًا، بشفافية بدائية تعوزه القدرة على الإحساس بامتلاكها.

قال لي ذات ليلة ، وكنا نجلس كالعادة في غرفة عبد الغني ومعنا أربعة آخرون :

- هيا بنا نصعد إلى أعلى الفندق ، فهناك أمر خاص أود أن أستشيرك فيه.

ثم نهض من مقعده على الفور ووقف ينتظرني ، تبادلت نظرة سريعة مع الزملاء الجالسين ثم نهضت بدوري مرافقا إياه إلى سطح الفندق الذي تتناثر فوقه بعض المقاعد المهملة والتي لم تعد صالحة للاستعمال ، فألقت بها الإدارة إلى الشمس والمطر. استطاع بطريقته أن يعد مقعدين من بعض الألواح الخشبية والقوائم المتناثرة، ثم وضعهما في ركن منعزل يطل على حارة ضيقة هجع أطفالها إلى مراقدهم فخيم عليها السكون والصمت. جلسنا متقابلين ورحت أنتظر حديثه.لم أكن أتوقع أن الأمر سيخرج عن نطاق ثرثرته التافهة والتي اعتدت سماعها منه، لذا لم أحاول أن أسأله عن السر الذي يؤرقه والذي جعله يأخذني من بين الزملاء حيث كنا

نجلس. تظاهرت بالنظر إلى الفراغات التي تحتضن أسطح البنايات المجاورة، وجعلت من صمتي دعوة له ليبدأ حديثه .

قال بصوت هادئ :

- أجبني يا صادق : لماذا كل هذا الحزن ؟

ابتسمت وكأني لم أجد لدي جوابا على سؤاله ، فأردف يقول :

أعلم أنني ثرثار ، لعل هذا هو عيبي الوحيد ، ومن حسن الحظ أني أعرفه ولكني هذه المرة، انتقي كلماتي وأحاول اختصارها لأجعلك تحدثني عن بعض ما يحزنك، تحدث يا صاحبي، لا تكتم عني سوى ما يجب أن يظل ملكك وحدك.

ثم أضاف بعد لحظة صمت:

صحيح أنني لا امتلك دواء لما تعانيه ، ولكن في مثل حالتك يكون الحديث ، مجرد الحديث ، ولو إلى ثرثار تحتقره مثلي ، مبعث شعور بالراحة.

شعرت بالخجل ، ورحت ألـوم نفسي- عـلى تسرـعها في إصدار الأحكام على الآخرين ، فهذا المخلوق الذي لم أر فيه سـوى كائن بلا مشاعر ليس أقل مني شعورًا بآلام الناس. الفارق بيننا هو فقط القدرة على التكيف مع الواقع، بالنسبة لي لم اسـتطع ، فظللـت حائرًا ابحث عن إجابة على أسئلتي المعلقة ، أما هو، فقـد اسـتطاع أن يتواءم مع واقعه ، ويستأنسه ، وبالتالي استطاع أن يعـيش حياتـه وفق صيغة الممكن ، ودون أن يعذبه التطلع إلى ما يجـب أن يكـون. ربما لهذا السبب لا تحمل قسماته علامات التبرم أو الاشمئزاز ، أنا لا أتعامل إذن مع مخلوق ثرثار بلا مشاعر ، بقدر ما أنـا في حاجـة لأن أتعلم من هذا المخلوق شيئًا من القدرة على التكيف.

كانت عينـاه شاخصـتان نحـوي في انتظـار مـا سـأقول ، صحيح أن فمه لم ينطق بكلمة واحدة ، ولكنـي اسـتطعت أن أقـرأ الإلحاح في حدقتيه اللتين راحتا تعكسان شعاعا خافتا يتسلل تجاهنا على استحياء عبر نافـذة مفتوحـة لغرفـة تقـع عـلى سـطح إحـدي

البنايات العالية القريبة من الفندق ، قلت ، عبر تنهيده خرجت رغم إرادتي :

- تسألني عن أحزاني ؟

أومأ برأسه دون أن تحيد نظراته عن تأمل ملامحي ، قلت وكأني أعتذر عن تصوراتي السابقة عنه ، والتي لم أصارحه بها في يوم من الأيام :

- توقعت أن هموم الآخرين وأحزانهم هي آخر ما يثير انتباهك....

ابتسم للحظة ، ثم اعتلت سحنته خيمة ألم كثيفة ، وراح يفرك يديه بعصبية أحسست معها أنني قد أسأت إلى مشاعره من حيث أردت الاعتذار ، قال وهو يعبث بعلبة سجائره التي التقطها لتوه من أسفل المقعد :

- كان عليك أن تفكر قليلاً قبل أن تصدر حكمًا .

ثم سادت لحظة صمت قال بعدها :

- لا تنسَ أنني دعوتك إلى هذا المكان لأسمع منك ، فلا داعي لحديثي أنا والذي قد لا ينتهي حتى الصباح .

شردت بأفكاري قليلاً ثم عدت إليه قائلاً :

- حين يعرف الملل طريقه إلى حياتنا ، يقتل فينا كل شيء فتعلو وجوهنا سحابات الكآبة والاغتراب .

قال :

- أفهم من هذا أن الملل هو سر حزنك وشرودك ؟

هززت رأسي وأنا أقول بصوت خافت :

- كل ما أراه أو ألمسه أضحى سخيفًا ومحزنًا ، لا أدري لماذا فقدت القدرة على أن أحلم .

ثم رفعت صوتي قليلاً وكأني أخاطب المجهول :

- حتى القدر ، صار عدوا لأحلامي ووهمي...

سألني متعجبًا :

- وحدي من بين كل الرفاق أحسست بك ، ترى لماذا ؟؟؟

قلت متصنعا عدم الاهتمام بمغزى سؤاله :

- أنت لا تدري كم يعذبني عملي في هدم المباني .....

بدا وكأنه قد نفض عنه ما يتسم به من غباء وهو يقول :

- لا تنس أننا نهدم المباني القديمة لتقام بدلاً منها عمارات أحدث وأجمل ....

قلت بلهجة أقرب إلى التحدي :

- ولكنني أنا وأنت نشارك في عملية الهدم وحدها ....ولا نعلم شيئًا عن البناء.

ثم أردفت :

- أريد عملاً بعيدًا عن هذا الرجل الذي تخصص في الهدم ودفن الموتى.

اعتراه الوجوم قبل أن يقول بأسى :

- لم أكن أتصور أن عملك هذا هو مصدر تعاستك ....

قلت وكأني أكمل ما بدأته :

- هـذا العمـل يضـاعف مـن شـعوري بـالاغتراب وأيضـا الاكتئاب. ....

ثم كان صمت طويل قطعته بقولي:

- إنها حقيقة شعوري ... لا أستطيع أن أكذب .

ثم أضفت :

- أنت الذي سـألتني، وأردت أن تعـرف لمـاذا أبـدو حزينـا رغـم ضحكاتنا الصاخبة ونحن نجلس معا في غرفة عبد الغنى.

قال وهو يشعل سيجارة :

- لقد وعدتك بأن لا أتحدث ، وسأفي بوعدي رغم كل شيء ....

ثم سادت لحظة صمت قطعها بسؤاله :

- .... وشروطك في العمل الجديد ....

انطلقت من فمي ضحكة ساخرة وأنا أقول :

- شروطي ... ومتى كان أمثالنا يفرضون شروطهم في الحيـاة أو العمل .. ، فقط أريد عملا يبعدني عن أعشاش البوم .

- وعني طبعا .

قلت :

- وعنك ، إلا إذا بحثت أنت الآخر لنفسك عن عمل جديد ...

قال بجمود :

- ولكني راض بما أنا فيه ....

- قد تكون راضيا ..... ، .... ولكني لا أظنك سعيدا ....

قال محتدا لأول مرة :

- أنا أصلا لا أعرف ما السعادة حتى أحدد لك مكانها من حياتي ....

ثم أردف بنبرة أقرب إلى الاحتجاج :

- عملي هو حياتي التي اخترتها .

كانت كلماته الأخيرة مفاجأة بالنسبة لي ، فأنا أفهم أن يجبر الإنسان على قبول عمل لا يحبه لأسباب عديدة ترتبط بظروف خارجة عن إرادته ، أما أن يختار بمحض إرادته عملا مقبضا من

نوعية هذا الذي يؤديه صاحبي ، ثم يدافع عن انتمائه لهذا العمل وانخراطه فيه ، فهنا وجدتني أدع جانبا كل ما كنا نتحدث فيه لأسأل بفضول واهتمام:

- كيف يكون عملك بين هدم المباني وإعداد القبور لاستقبال موتى جدد، هو حياتك التي اخترتها ....

تعمدت أن يكون سؤالي بهذه الصيغة المستفزة حتى أدفعه إلى أن يتحدث ويخبرني بما لا أعرفه .

قال بهدوء :

- أنت هكذا تدعوني لأن أتحدث .

قلت :

- إنني لأول مرة أشعر بالرغبة في أن أسمعك ....

قلت ذلك عبر ضحكة مصطنعة لم يتوقف طويلاً عند مغزاها.

اعتدل في جلسته وراح يسرد قصة لم أملك إزاءها سوى أن أنقلها عنه كما رواها لي من خلال انفعالاته التي لم يحاول

إخفاءها أو التحكم فيها ..، كان يتألم وهو ينفث دخان سجائره المختلط بزفيره وصوته ومخارج كلماته، وكنت بدوري، وبفعل ما يوحي به الليل وصمته وجلاله، أنصت بكياني كله لكل المواقف واللحظات التي من نسيجها تشكلت قصة ومأساة ، ورحلة حياة ...

قال :

جئت إلى هذه الحياة استجابة لرغبة ، لم تكن رغبتي بكل تأكيد. المهم أنني أتيت ، وهأنذا أقترب من عامي الثلاثين ، لا أتذكر الكثير عن طفولتي أو صباي، كل ما أتذكره هو اختلاط مراحل حياتي وتداخلها إلى الحد الذي جعلني أشعر بأن مذاق الحياة بالنسبة لي لم يتغير منذ بدأت أعي وجودي وحتى هذه اللحظة التي نتحادث فيها ، أذكر أيضا أن الأيام كشفت لي منذ البداية عن وجهها القبيح ، وأجبرتني على أن أتعامل معها كما هي ، سلسلة مترابطة من عذابات الحرمان والفقر ، لم أتمرد رغم صنوف

القهر التي تجسدت في تتابع الأيام ، ولم أحمل في أعماقي من النـدوب والتقيحات سوى إصرارٍ غبيٍ على الانتماء إلى الفئات المنبوذة ضمن مجتمع الفقراء، ولكن دون أن أكون قاتلا ، أو قوادا ، أو لصًـا، لا لم أكن أبدًا ولن أكون ضمن أي من هؤلاء، فأنا كما عرفتنـي، إنسـانًا سويًا وفق المقاييس المتعارف عليها ، لم أخرج عن السـلوك السـوي سوى مرة واحدة حين قفزت من أعلى سور مؤسسة الإحداث التي كانت تؤويني بعد أن كنت قد تسلقت جدرانه مـن الـداخل لكـي أهرب مما بداخل المؤسسة من أهوال. كان هروبي له دوافـع أخـرى أهمها إحساس بالضيق تملك مشاعري، رحت معـه أسـأل نفسي: لماذا أنا هنا ؟ ... وما هي البداية التي انتهت بي إلى هذا الملجأ ؟

لابـد أن تعـرف أولا أن هـذا الإحسـاس لم يتطـرق إلى مشاعري هكذا بلا مقدمات ، وإنـما بـدأ علامـة اسـتفهام صـغيرة راحت تكبر كل يوم ، خصوصًا بعد أن أدمنت عادة الانفـراد كـل ليلة بزميل من زملائي الصبية ، لأسمع منه قصته ، لماذا هو في هـذا

المكان ؟ سمعت روايات عجيبة يجمعها كلها خيط واحد ، الجريمة بشتى أشكالها ودوافعها ، كان بعض الصبية يعرفون كيف أصبحوا ضحايا وبعضهم يجهلون كل شيء عن ماضيهم ، وكنت أنا أحد هؤلاء ، فبدأ يقلقني هذا الأمر خصوصا مع تقدم العمر ، وولوجي مرحلة التساؤلات الكثيرة في الطفولة المتأخرة ، رحت أتساءل : من أكون يا ترى ؟ ولماذا لا أعيش في بيت مع أبوين يهتمان بحياتي ؟

في زحام تساؤلاتي الكثيرة كانت تقفز إلى ذاكرتي صورة شغلتني دون أن أمنحها ما تستحق من اهتمام. كانت الصورة لامرأة عجوز تأتي لزيارتي بين فترة وأخرى ، كانت تحمل لي أحيانًا بعض الحلوى، وأحيانًا أخرى جلبابًا أو حذاء، أتذكر ملامحها جيدا، كانت رغم كبر سنها، متصابية وأنيقة الملبس، كانت تدخن بشراهة طوال اللحظات القلائل التي تقضيها في زيارتي. لم تحدثني أبدا عن قصتي أو قصتها. فقط تربت على كتفي بعد أن تقبلني وتمنحني ما أتت به من أشياء تدخل السرور على قلب صبي في مثل

سني، ثم ترحل، توقعت أنها ربما تكون أمي، وكنت أناديها حين تأتي لزيارتي على أنها كذلك، وكان حنانها المتدفق تجاهي هو ما جعلني لا أشك في كونها المرأة التي أتت بي إلى هذه الحياة. فبدأت أسأل نفسي، خصوصًا خلال اللحظات التي تعقب زيارتها لي ، لماذا دفعت بي إلى هذا الملجأ ؟ ثم ماذا تفعل طوال غيابها عني ؟ وأين تعيش، ثم لماذا لا تأخذني لأعيش معها مادامت تهتم بزيارتي وبحمل الحلوى والملابس إلى حيث أقيم ؟ ...من هنا بدأت تترسب في ذهني فكرة انتمائي إلى عالم الضحايا ... ولكن ما ظل يحيرني هو الكيفية التي صرت بها من أفراد هذا العالم ... معظم الذين أعيش بينهم يعرفون قصصهم ، صحيح أنها في أغلبها قصص ملفقة سواء من قبل إدارة الملجأ ، أو من قبل المجرمين الذين ارتكبوا الجرائم ، إلا أن أغلب رفاقي وجدوا إجابات على تساؤلاتهم، ولا يهم بعد ذلك أن يكونوا قد استراحوا أو بدأوا رحلة العذاب. بالنسبة لي، لم أسأل أحداً ، لا إدارة الملجأ ولا المرأة

التي تأتي بانتظام لزيارتي، ظلت أسئلتي تتكاثر، والأيام تعقبها الأسابيع والشهور وبين محاضرات تهذيب الأخلاق، ودروس تعليم مهنة النجارة التي رشحتني لها إدارة الملجأ، كنت انتظر قضاء ثلث عمري الافتراضي على الأقل حتى يتسنى لي أن أغادر الملجأ ، وأبدأ أداء دور، أي دور، في الحياة .

وذات يوم، تملكني إحساس بالضيق والاختناق جعلني أنطوى على ذاتي، ثم أمضى- لأجلس في ركن منعزل بعيدا عن مناكفات الصبية من رفاق الملجأ. تذكرت أن المرأة لم تأت لزيارتي منذ ستة شهور. صحيح أن زياراتها لي كانت متقطعة، إلا أن الفاصل الزمني لم يصل أبداً إلى مائة وثمانين يوماً، ولعل هذا الأمر، اشتياقي لرؤيتها- هو الذي دفع بي إلى التفكير في الهرب خصوصاً بعد أن راحت الأسئلة تحاصرني دون أن أجد من يجيبني على أي منها ...

كنت حتى تلك اللحظة لا أعرف شيئاً عن المرأة التي أشعر تجاهها بشيء من عاطفة البنوة، والتي انقطعت أخبارها دون

أن أعرف طريقاً للاتصال بها .. ، كان هذا الأمر هو المشكلة التي فكرت طويلاً في جوانبها المختلفة علّني أجد حلاً. فتسلق أسوار الملجأ، والقفز هرباً من خلف هذه الجدران، عملية بسيطة ... ولكن الصعوبة تكمن في تحديد الطريق بعد مغادرة الملجأ ... كيف أتصرف ؟ .. كيف استدل على المرأة التي لا أعرف لها اسماً أو عنواناً ، والتي أشعر بأن هناك علاقة ما تربط بيني وبينها ...

هداني تفكيري إلى الاستعانة بإحدى المشرفات ... فتاة طيبة ، اختارت طريق الرهبنة بعد أن عزفت عن الحياة ناذرة شبابها لخدمة الرب من خلالنا .. كانت بردائها الأبيض ، وبشرتها المتوردة ، وبفيض الحنان الذي تغمرنا جميعاً به ، أقرب إلى قديسة ممن وردت قصصهن في الكتب المقدسة ... الوحيدة من بين كل العاملات بالملجأ التي لم أسمع منها يوماً كلمة (يا ابن الحرام) أو (يا ابن الزنا) ، أو غيرها من الألفاظ الجارحة التي عادة ما نسمعها من جميع المسئولين عن تربيتنا سواء داخل العنابر ، أو في قاعات الطعام ... توجهت إليها بعد أن كانت قد فرغت من إحدى

صلواتها ، استقبلتني بابتسامة حنون ، ثم دعتني إلى الجلوس قريباً منها ، وأخرجت من حقيبة يدها قطعة حلوى مغلفة بورقة فضية قدمتها لي وهي تربت على كتفي قائلة :

- لماذا تأخرت عن الذهاب إلى فراشك ؟

كانت الساعة تقترب من التاسعة ، والنصف ولما كان موعد نومنا محدد بالتاسعة لذا فإنني أكون قد تأخرت نصف ساعة أضعتها في انتظار أن يهجع باقي الزملاء إلى عنابر النوم ، حتى أستطيع أن أطرح أسئلتي على انفراد .. فقلت متلعثماً :

- أعلم سيدتي أنني تأخرت ... ولكن ربما لي العذر إذ كنت أرغب في مصارحتك ببعض الأمور التي بدأت تعذبني في الليل والنهار ...

دعتني إلى الاقتراب منها ، وراحت تمسح بحنان على شعري المتجعد وهي تردد كلمات أتوقع أنها صلوات من الكتاب المقدس ... استسلمت أمامها لإحساس غامض بالارتياح أيقظ في أعماقي معنى الحرمان ، فقلت على حين غفلة :

- أريد أن أعرف : من أنا ؟

وقبل أن تجيبني أردفت :

- لا تحاولي تهدئتي بنسج قصة غير واقعية. أرجوكِ سيدتي، ما أريد أن أعرفه بالتحديد هو علاقتي بالمرأة التي كانت تأتي لزيارتي ثم انقطعت أخبارها منذ ستة شهور، من أكون بالنسبة لها ؟... وما هي حكايتي ؟؟؟

نسيت أن أخبرك بأن ما دفع بخطواتي نحو الراهبة هو القرار الذي كنت قد اتخذته بالهرب ، وبالتالي صممت بيني وبين نفسي على أن أحاول معرفة كل ما يمكنني معرفته خاصة تلك الأمور التي قد تساعدني بعد أن أخرج إلى الشارع . لم أخبر أحداً بهذه النية، حتى هي الراهبة ، والتي نستريح جميعاً حين نصارحها باعترافاتنا، لم أخبرها بالهدف الذي من أجله بدأت أبحث عن سر المرأة .

قالت بهدوء ورقة ، ويدها لم تزل تمسح على شعري :

- الآن لتذهب إلى عنبر النوم ... وغداً صباحاً ، تعالَ لأحدثك عن كل شيء .

لم أناقشها ، ونهضت من فوري متلمساً طريقي عبر ممرات الملجأ التي أُطْفِئَتْ أنوارها منذ الساعة التاسعة وفق النظام المعمول به ... وصلت إلى فراشي بخطوات محسوبة مشيتها على أطراف أصابعي حتى لا أوقظ زملائي الآخرين ، ثم صعدت بحذر إلى سريري ملقياً بجسدي فوقه ... حاولت ليلتها أن أنام ، ولكن دون جدوى ... فقد احتواني شوق جارف إلى رؤية النهار الجديد ... كانت المرة الأولى التي شعرت فيها بإحساس غامض يشدني نحو إشراقة الشمس ، مزيج من الخوف والشوق والانتظار حال بيني وبين النوم، إلى أن انبلج ضوء الفجر ، وبدأ الزملاء يبعثون الحياة من جديد داخل العنبر ... نهضت بدوري، وتوجهت إلى دورة المياه للاغتسال ثم عدت لأرتب فراشي من جديد قبل أن أنطلق إلى طابور الصباح ، الذي يسبق تناولنا لطعام الإفطار ... وقبل أن انتهى من وضع اللمسة الأخيرة على هيئة الفراش الذي أحسنت ترتيبه ، لمحتها تقف بباب العنبر وعيناها تراقباني ... نظرت نحوها

، فأشارت بيدها تدعوني لأن أتبعها ... هرولت مسرعاً للحاق بها حيث كانت قد سبقتني بخطوات .. ألقيت عليها تحية الصباح ثم سرت إلى جانبها ... قالت ونحن سائرين في اتجاه غرفة مكتبها :

- لقد حصلت على موافقة المشرف المختص قبل أن آتي إليك؛ حتى لا تعاقب على تغيبك عن طابور الصباح .

لم أنبس بكلمة ، وظللت صامتاً إلى أن وصلنا أمام باب الغرفة التي كانت قد تركته مواربا ، دفعته بيدها ثم دلفت إلى الداخل ... غرفة بسيطة ولكنها نظيفة ومرتبة بعناية ... قالت وهي تشير نحو مقعد حديدي ذي حواش جلدية وضع أمام طاولة بيضاء في ركن الغرفة ، ومسنده الخلفي ملاصق للحائط .

- لا تظل واقفاً .. اجلس حتى نستطيع أن نتحدث كما نريد .

جلست ، ثم إذا بها تحضر طعاماً من ثلاجة موضوعة في أحد أركان الغرفة. وضعت الطعام أمامي على الطاولة، رحت أحملق فيها وهي تروح وتغدو متوهمة أنها تمنحني متسعاً لأتناول طعامي دون حياء ، ثم رأيتها وقد جلست إلى مكتبها الملاصق

للجدار المقابل وظهرها في مواجهتي حيث أجلس إلى طاولة الطعام وراحت تقلب في بعض الأوراق والملفات التي تغطي معظم مساحة المكتب ... فهمت ما تقصده من وراء فعلتها هذه، وقلت لنفسي أن العذارى من هذا النوع يعرفن أن صبية الملاجئ أمثالي لا يتناولون طعامهم بطريقة مهذبة ؛ لذا فلكي تتحاشى إحراجي ، وتتركني أتصرف على سجيتي مع الطعام الذي وضعته أمامي. اختارت أن تدعني أشعر وكأني بمفردي في الغرفة ... كان هذا ما فسرت به انصرافها إلى المكتب والأوراق ، وهو أيضاً ما جعلني أخرج عن صمتي محتداً :

- سيدتي ، ليس الطعام هو ما أتيت من أجله .

التفتت نحوي وعلى ثغرها ابتسامة وادعة ... لم أكن قد أكلت شيئًا مما هو أمامي، فرأيتها تنهض مقتربة مني ، وراحت تمسح على شعري عبر الطاولة التي تفصل بيننا ، وهي تدعوني لتناول الطعام قائلة :

- لتتناول إفطارك ، ولتدعني أبحث عن الملف الخاص بك ... ثم عادت إلى مكانها من جديد ...

لم أكن حتى تلك اللحظة أتوقع أنها المسئولة عن حفظ أسرار كافة الصبية داخل الملجأ ، خاصة تلك الأسرار المتعلقة بنسب كل منهم ، الأب ، الأم ، القصة بتفاصيلها .. إلخ ...

فأنا منذ البداية ، اخترتها هي بالذات لأطرح عليها أسئلتي لدوافع خاصة لا علاقة لها بنوع العمل الذي تؤديه ، والذي لم أفكر في الاستفسار عنه مطلقاً ... أما كل ما كنت أعرفه عن طبيعة عملها فهو كونها مسئولة عن دروس تهذيب الأخلاق التي تلقيها علينا على مدى ساعة كاملة كل يوم، كانت تراقبني دون أن تدعني أشعر بذلك ، حتى إذا ما أوشكت على النهوض من مقعدي بعد أن انتهيت من تناول ما استطعت تناوله من لقيمات قلائل، وجدتها تشير عليَّ بحمل مقعدي والجلوس قريباً منها. أطعت دون تردد، وخلال اللحظات المعدودة التي استغرقها انتقالي من جانب أحد جدران الغرفة إلى الجدار المقابل حيث تجلس ، ارتسمت في مخيلتي آلاف الصور، والتوقعات ..

هأنذا أخطو نحو اكتشاف حقيقة وجودي. يا إلهي .. كم كانت لحظات قاسية ، ومريرة ومشوقة ... تقدمت بخطوات مرتعشة لأضع مقعدي بجوارها دون أن أنطق بكلمة واحدة، ثم جلست ولم يزل يسيطر على مخيلتي ضباب كثيف من التوقعات والمخاوف، في حين تحجرت عيناي على صفحات الملف الذي وضعته أمامها وراحت تقلب صفحاته بتمعن واهتمام واضحين .

قالت وهي تترك الملف بعد أن انتهت من قراءة الصفحة الأخيرة :

- تريد أن تقرأ بنفسك ، أم أقص عليك ؟

قلت بخجل :

- حتى الآن لم تنجح محاولات المشرف تعليمي القراءة .

لم تؤنبني كما كنت أتوقع ، وإنما ربتت على كتفي بحنان وهي تشرح لي الفوائد التي يمكن أن يجنيها الإنسان من مجرد تعلمه القراءة والكتابة ، ثم انتقلت إلى موضوع لقائنا وهي تسألني :

- حدد بالضبط ما تريد ...

لم أكن في حاجة لأن أفكر قبل أن أنطلق بسؤالي الأول :

- من هي المرأة التي كانت تأتي لزيارتي ؟ ولماذا انقطعت أخبارها ؟

أخبرتني باسمها، كما هو مدون في صورة بطاقتها الشخصية المحفوظة في الملف. أما سر انقطاعها فهذا أمر لا نعرف عنه شيئاً حتى الآن .

قالت ذلك ، ثم لاذت بالصمت ... في انتظار سؤالي الجديد .

فقلت وأنا أبذل جهداً في ترتيب التساؤلات الكثيرة المتصارعة بلا هوادة داخل رأسي :

- حسناً ، ومن تكون بالنسبة لي ؟

- فاعلة خير ، ليس أكثر ، هكذا أجابت باقتضاب .

سألت :

- إذن هي ليست أمي ؟

قالت :

- لا ...

بإلحاح وتبرم واضحين ... قلت :

- ولكن ، لابد وأن هناك خيطاً يربطها بي ؟؟

حدقت للحظة داخل عيناي ، قبل أن تعود إلى أوراق الملف قائلة :

يقولا الملف الخاص بك ... " في ساعة متأخرة من إحدى الليالي خرج الحارس الذي يتولى حراسة الباب الرئيسي للملجأ في نوبة تجواله المعتادة حول السياج ، فأثار انتباهه صراخ طفل ملقى قريباً من الباب ... فاقترب منه ، وبخبرته في هذا العمل، حراسة الملجأ، لم يفاجأ أو يندهش ... كل ما فعله أنه استفسر من بعض المارة الذين يسلكون الطريق المحاذي لسياج الملجأ في تلك الساعة المتأخرة عما اذا كان أحدهم قد شاهد امرأة أو رجلا يلقى بهذا الطفل إلى جانب السور، أفاد أحدهم، وكان ثملاً يترنح، بأن امرأة شابة جاءت منذ حوالي نصف ساعة وبين ذراعيها طفل حديث الولادة ملفوف ببعض الخرق البالية وضعته في هذا المكان ثم انصرفت. أضاف هذا الشخص ، وهو يلوك كلماته بفعل تأثير

الكحول، أنها حين لمحت وجودي على الرصيف المقابل اقتربت مني ، صحيح أنها اكتشفت أنني مخمور،وأبحث عن طريقي إلى البيت، إلا أن هذا لم يمنعها من أن تدس في يدي مبلغاً متواضعاً ، وعلبة سجائر سحبت منها سيجارة واحدة وأشعلتها قبل أن تنصرف. أما حين سئل هذا الشخص عن أوصاف المرأة فقد أجاب بأنها جميلة وتلطخ وجهها بمساحيق كثيرة، وتتخفى بعباءة سوداء لا تخفى ما تحتها من ملابس فاجرة وأنيقة، أما يدها التي مدتها نحوي بالنقود والسجائر فقد كانت مثقلة بكمية من الذهب، ثمنها يشبع مدينة جائعة.هذا بالضبط ما قاله الرجل في وصف المرأة. قام الحارس بتسجيل هذه المعلومات وهو يحمل الطفل ليسلمه إلى إدارة الملجأ. ثم أغلقت الملف وهي تتجه بنظراتها نحوي قائلة:

- كنت أنت هذا الطفل ، وهذه القصة الناقصة التي لا تحكي شيئاً هي قصتك .

قلت بتبرم :

- ولكني حتى الآن لم أعرف شيئاً عن المرأة التي كانت تزورني، والتي لم أزل أشك في أنها أمي ؟!!

عادت لتفتح الملف .. وهي تقول :

سأقرأ عليك من واقع ما هو مسجل هنا " ... بعد خمسة أيام أتت امرأة تبلغ حوالي الأربعين ... سألت عن طفل بأوصافك ، خاصة الثقب الموجود في إحدى أذنيك ، فقدمناك لها، راحت تقبلك بحنان صادق، ثم أعادتك إلى المشرفة وهي تعدها بدوام الاهتمام بك، والمجيء للاطمئنان عليك. حاولنا أن نعرف منها سر العلاقة بينكما، فلم تعترف بشيء، قالت أنها فقط فاعلة خير سمعت بقصة إلقائك في الطريق العام بجوار سياج الملجأ فأقسمت بينها وبين نفسها على أن تظل ترعاك حتى تكبر وتغادر الملجأ. لم تقتنع الإدارة بهذا الادعاء، فبذلت جهودها مستعينة برجال الشرطة المختصين في محاولة للوصول إلى الحقيقة، وكانت النتيجة المؤكدة هي أن هذه المرأة ليست والدتك، فهي وكما أثبتت تحريات الشرطة، امرأة عاقر، ولم يسبق لها أن أنجبت أطفالاً ... هذا من ناحية ... ومن ناحية أخرى تأكد لدى إدارة الملجأ أن هذه المرأة لا تصلح لتبنيك بسبب الشبهات التي تحيط بها وبالكوخ الذي تقطنه ، والذي أفادت معلومات شرطة الآداب بأنه يستخدم بمثابة سوق

تَجْرِي خلف جدرانه عمليات المساومة بين الساقطين والساقطات بمختلف أنواعهم ... وأن المرأة تتولى بنفسها إدارة شئون البيع والشراء ...

ثم أغلقت الملف وراحت تكمل :

- ظلت تواظب على زيارتك والاهتمام بك إلى أن انقطعت أخبارها فجأة ولم نعد نعرف شيئاً عنها .

قلت وكأني أعقب على كلماتها :

- ربما هي الآن في السجن .

قالت باقتضاب :

- لا أدري ...

وحين سألتها عن عنوان هذه المرأة ، أو أين يمكن أن أجدها .

امتدت أناملها من جديد لتناول الملف ، وراحت تقرأ بصوت عال الجزء الخاص بعنوان سكنها ، وأين يقع البيت بالتحديد ، وأرقام الأوتوبيسات الموصلة إلى الحي ... وقبل أن تطوي الصفحة رجوتها أن تكتب ما قرأته. ترددت لحظة قبل أن تسألني عن السبب ، فقلت لأوفر عليها عناء السؤال :

- أريد أن احتفظ بهذا العنوان ، من يدري ، ... ربما أستطيع في المستقبل أن أسأل عنها .

ابتسمت وهي تتناول قلمها وتكتب العنوان على ورقة صغيرة ، منحتني إياها فطويتها ووضعتها في جيب سروالي ، وأنا أنهض من مقعدي مستأذناً في الانصراف .

مضيت خارج الغرفة ورأسي يكاد ينفجر من كثرة علامات الاستفهام التي راحت تحاصرني بغير رحمة ملتهمة كل شيء حتى أسئلتي القديمة التي لم يعد لها معنى من فرط تفاهتها ... كان عليَّ أن أمضي إلى ورشة النجارة التي كان زملائي قد سبقوني إليها بعد طابور الصباح وطعام الإفطار، أحسست وأنا أسير بخطى متثاقلة أن كل ما جنيته هو فقط هذه النار التي اشتعلت بداخلي وراحت تأكلني دافعة بي إلى الطرق المجهولة. لا أخفي عليك، حددت ساعة الهرب من الملجأ وأنا في طريقي إلى الورشة.

أمضيت يومي كغيره من الأيام، ولكن ما كنت قد قررته كان أمرًا مختلفًا. انتظرت حتى المساء وإذا ما جاء الليل، وفي أثناء انهماك الملجأ وحراسه في طعام العشاء، تسلقت السور الحديدي الذي لم

يكن شديد الارتفاع، وقفزت إلى شارع خلفي مقفر تتناثر فيه أكوام القمامة، ثم ما هي إلا لحظات ، وإذا بي أقف خارج الملجأ الذي آواني على مدى السنين التي مضت من عمري.

رحت أتأمل المبنى والأسوار للحظات كي أتأكد من أنه لا يوجد ثمة مراقب يراقبني، وأيضاً لألقي نظرة وداع على بناية الملجأ وسورها العتيد، ثم انطلقت بخطوات سريعة لأصل إلى نهاية الشارع حيث توجد محطة الأوتوبيس عند تقاطع نهايته مع شارع عرضي كبير. كان هناك رجل مسن ينتظر على المقعد الحجري الذي يعتبر العلامة المميزة للمحطة. اقتربت منه وأنا أخرج من جيبي الورقة التي تحمل العنوان ورقم الأوتوبيس، ثم مددت له يدي دون أن أتكلم ، تناول الورقة، ونظر فيها بسرعة ثم أعادها إلى وهو يقول بأن هذه المنطقة يمر عليها كل يوم في طريق ذهابه وعودته. ثم رفع صوته قليلاً وهو يدعوني إلى الجلوس بجانبه. جلست حيث أشار ثم بعد لحظات صمت قال ... أنني لن أجد صعوبة في الوصول إلى الشخص الذي أبحث عنه فالمنطقة ليس بها سوى مجموعة من الأكواخ الطينية ، والعشش المبنية من

الصفيح ، وجميعها لا يتعدى عددها العشرين، ثم أن سكانها يعرف كل منهم الباقين ... أشفقت عليه من صعوبة الحديث وارتعاشه فمه حين يتحدث، فبقيت صامتاً، جلسنا متجاورين قرابة نصف ساعة دون أن نتبادل كلمة واحدة. بالنسبة لي، آثرت التأمل حين سمعته وهو يحاور نفسه. لم أكن أدري أننا حين نبلغ مراحل متأخرة من العمر ، ويستأصلنا المجتمع القاسي من دوائر الحركة فيه، نعود إلى الطفل القابع في أعماقنا لنحاوره ونعيش معه عبر محاورات طويلة يكون طرفها شخص واحد يسأل ويجيب ... لاحظت ذلك على الرجل الذي ظل يحادث نفسه منتقلاً من موضوع إلى موضوع، يلوي شفتيه حيناً، ويضحك بسخرية حيناً آخر ، وأنا بجواره واجم أفكر في أشياء كثيرة تتعلق بمصيري ومجهولية كينونتي ... لم أعره اهتماماً إلا حين لاحت على مرمى البصر- سيارة الأوتوبيس التي ننتظرها والتي كان قد أعلن عن وصولها صوت محركها الضخم وهو يشق الصمت المطبق، والذي كان قد راح ينسج خيوطه حول الشارع بعد أن بدأت حركة البشر- فيه تتلاشى مع تقدم الليل ... ساعدته على الصعود واختيار مقعد من المقاعد

الكبيرة التي كانت خالية في تلك الساعة المتأخرة، ثم أخذت مكاني على مقعد آخر خلفه ، وانطلقت السيارة من جديد بركابها القلائل، والذين لا يتعدى عددهم عشرة أفراد .

كنت حريصاً طوال الطريق على أن أنبهه بين لحظة وأخرى إلى وجودي لكي لا ينسى حاجتي إلى المساعدة في تحديد المحطة التي يجب أن أهبط عندها ، وكلما توقفت السيارة عند إحدى المحطات، أسأله بغباء مصطنع عما إذا كان علي أن أنزل مع الآخرين. ظللت على هذه الحال إلى أن التفت نحوي ليخبرني بأن المحطة التالية هي التي يجب أن أنزل عندها. نهضت من فوري متجهاً صوب الباب حتى إذا ما توقفت السيارة كنت ألوح له بيدي، وأنا أهبط في ظلام دامس استقبلني بنباح الكلاب وبأوحال راحت تغوص فيها قدماي على غير هدى، قبل أن أتأكد من أنني أخطو وسط أكوام من روث بغال وحمير، تغزو رائحتها الكريهة خياشيمي. توقفت عن السير في محاولة لاكتشاف الطريق. كانت السيارة قد تركت العاصمة قبل ثلاث محطات ... فبدأت تتلاشى الأضواء الكبيرة والمبهرة لتحل محلها مصابيح خافتة تتناثر على

مسافات متباعدة لتعلن أن هذه الضواحي البائسة تختلف عن المدينة، وأن قاطنيها هم الذين يعملون في خدمة السادة الذين كانوا يجلسون في تلك اللحظات أمام المدافئ وأجهزة التليفزيون ... المهم أنني توقفت لأتخلص من حالة العمى المؤقت الذي أصابني به انتقالي من السيارة المضاءة إلى هذا القفر المظلم، وحين حدقت بعيني اللتين بدأتا تستعيدان خيطاً واهناً من القدرة على الإبصار لمحت رجلين يقفان على بعد أمتار قلائل ، كانا يتحدثان بصوت خافت حول اقتسام شيء ما، لم أتبين في البداية ما هو ، ولكنني بعد أن أصخت السمع لجزء من حوارهما عرفت أنهما يعملان ضمن مجموعة أكبر تخصصت في اختطاف الصبية الصغار، خصوصاً أولئك الذين تضمهم الملاجئ ودور رعاية الأحداث، ثم يقومان بالاشتراك مع زملائهما بتسليم هؤلاء الصبية إلى جماعة أخرى تتولى تعليمهم فن الجريمة، وهذا مقابل مبلغ محدد ومتفق عليه. كان الرجلان فيما بدا لي قد انفردا بالصيد هذه المرة وبدون علم رفاقهما، فاختارا هذا المكان المعزول لتحديد نصيب كل منهما في المبلغ الذي تقاضياه لتوهما بعد أن سَلَّمَا الصبي، كان قد خطر بذهني في البداية

أن أتقدم إليهما ليساعداني في بحثي عن الكوخ الذي أقصده، ولكني، وبعد أن وقفت مشدوهاً للحظات، اعترتني رجفة خوف، ثم غيرت رأيي في الحال ورحت أركض بحذر في الاتجاه المضاد مبتعداً عن المكان الذي يقف الاثنان فيه. من حسن حظي أنهما لم يشعرا بوجودي منذ البداية مما جعلهما لا يعيران اهتماماً لي وأنا أعود إلى السير بخطوات عادية بعد أن ابتعدت عنهما بما فيه الكفاية. في ذات الوقت كنت قد بدأت أقترب من المصابيح التي تناثرت بكآبة فوق الأكواخ مرسلة أضواءها الحمراء الخافتة ، التي تبعث على الحزن أكثر مما تساعد على الرؤية. لمحت امرأة عجوز تخرج من أحد الأكواخ، ثم تجلس على استحياء للتغوط بجوار أحد أكوام القمامة. تسمرت في مكاني حتى تنتهي من قضاء حاجتها ثم حين رأيتها تستدير عائدة، أسرعت الخطى لألحق بها، ولتفاجأ بي وقد صرت قريباً منها. كان هناك مصباح ينتصب على مقربة منا جعلني أتبين نظرة الدهشة المشوبة بالعطف في عينيها حين توقفت تنتظر وصولي إليها. بادرتها على الفور بالسؤال عن المرأة التي أبحث عنها، وحين طلبت مني تكرار الاسم، قلته ثلاثياً. لم أكن أتوقع أنها

ستلوي شفتيها بامتعاض وهي تهم بالانصراف دون أن تنطق ولو بكلمة واحدة. وقفت جامداً في حين بدأت هي بالابتعاد متجهة إلى حيث تقصد، ثم لم تلبث أن توقفت واستدارت عائدة إلى حيث لم أزل واقفاً في مكاني. سألتني عن اسمي، ولماذا أبحث عن هذه المرأة، ولما أخبرتها بكل شيء دعتني إلى مرافقتها .

سرت إلى جوارها بلا تردد.لم أكن حزيناً ولا سعيداً. فقط كنت مهموماً بالتفكير في حالي، وظروف حياتي الغريبة، وصلنا إلى الكوخ الذي لم يكن يبعد كثيراً عن كوم القمامة. دعتني إلى الدخول بعد أن دفعت الباب الخشبي بيدها ليُفتح وتخرج عبره سحب كثيفة من الدخان، خلفها احتراق قطع الخشب في الإناء الفخاري الذي تستخدمه كمدفأة ... قالت ونحن ندلف إلى الداخل :

- دع الباب مفتوحاً حتى يخرج هذا الدخان .

ثم أردفت :

- الشتاء صعب يا ولدي وأنا وحيدة في البرد ...

لم يكن لدي ما أقوله، فتبعتها إلى الداخل حيث فراش مهلهل ملقى على الأرض هو أول ما تقع عليه عين الزائر، وبعض

الأواني المعدنية الصدئة تتناثر هنا وهناك، وموقد كيروسين تستخدمه فيما يبدو لإعداد الطعام والشاي، وفي أحد الأركان ، قدر مملوء بالماء ومغطى بخرقة سوداء فوقها كوب من الصفيح، جلست على الفراش حيث تضع مدفأتها البدائية بالقرب منه.تلفت فيما حولي. لم يكن هناك بالإضافة إلى ما وقع عليه بصري سوى سلة من سعف النخيل معلقة في الجدار فوق الفراش مباشرة. سألتني قبل أن تجلس عما إذا كنت قد تناولت عشائي، فأخبرتها بأنني تسللت من الملجأ ساعة تقديم العشاء. أنزلت السلة ووضعتها أمامها وهي تجلس متربعة فوق الفراش ثم راحت تخرج منها قطعاً من الخبز اليابس وبعضا من حبات الطماطم. وضعتها أمامي على الفراش، ثم نهضت وملأت الكوب ماء من القدر وأعادت تغطيته بالخرقة السوداء. قالت وهي تتوسط المسافة بيني وبين القدر ، والكوب لم يزل في يدها :

- الدخان لم يعد له وجود .

قلت :

- من الأفضل أن نغلق الباب إذن .

أغلقته وعادت لتضع أمامي كوب الماء ثم انصرفت نحو موقد الكيروسين لتشعله وتبدأ في إعداد الشاي .

شعرت بدفء نسيت معه كل مظاهر البؤس التي تحيط بي، واستسلمت لإحساس غامض بالأمان وأنا أنصت للصوت المنبعث من الموقد، في حين راحت عيناي تحدقان في جمر الموقد الذي أحال رطوبة الكوخ إلى ما يشبه ضحى يوم من أيام الربيع. كانت المرأة تتأملني بتفرس عجيب دون أن تشغلني عن قضم حبات الطماطم ومعها لقيمات الخبز. كانت نظراتها تختلف كثيراً عن نظرات راهبة الملجأ، ورغم ذلك لم أشعر بالغربة بل على العكس ، أحسست برباط قوي يجمع بيني وبين هذا المكان، حتى العجوز شعرت تجاهها منذ اللحظة الأولى وكأن صلة رحم تجمع بيننا. تسألني عن السبب ، لا أدري ، ربما هو البؤس الذي يزيل حواجز النسب بين البؤساء ، ربما هو ضياعي وحاجتي إلى الانتماء بعد أن فشلت في اكتشاف حقيقة وجودي بين جدران الملجأ، وربما أخيراً أن هذا المكان هو الذي شهد مولدي حين أتيت إلى هذا العالم ... المهم أنني لم أنم تلك الليلة إلا بعد أن استرحت حين

صارحتني العجوز بأن المرأة التي أبحث عنها ماتت في ظروف لا يعرفها بالضبط أحد من سكان المنطقة ... بعضهم قال أنها ألقت بنفسها في النهر وهي في حالة سكر شديد ولم يعثر على جثتها ، وبعضهم قال أنها ماتت على أثر تناولها لكمية كبيرة من الحبوب المخدرة وبقيت في مشرحة المستشفى عشرة أيام ثم دُفِنَتْ في إحدى المقابر العامة ... وهناك رواية أخرى تقول بأنها ماتت مقتولة بأيدي بعض عملائها أو شركائها الذين أحسوا بها في الفترة الأخيرة، وقد وهنت وبدأت تصاب بحالات نسيان وأحياناً جنون فأخذوا نقودها وحليها ثم قتلوها ودفنوا جثتها في مكان مجهول ... والحقيقة الوحيدة التي أكدتها لي العجوز هي أن المرأة ماتت في ظروف غامضة ولم تترك وراءها ما يستدل منه على شيء بخصوص قصتها مع الحياة أو الموت ، وعلمت فيما بعد أن المرأة لم تكن تقيم إقامة دائمة في كوخها ، وإنما كانت تأتي إليه فقط أثناء الليل ثم تغادره قبل انبلاج الصباح، ولم تكن هناك أدنى علاقة تربطها بسكان المنطقة الذين يعرفون كل شيء عن سلوكها وإن كانوا نادراً ما يرونها ...

كان عليَّ أن أتعامل مع الحقيقة التي اكتشفتها والتي لم تكن سوى أن المرأة التي تعرف سر وجودي قد ماتت قبل أن ألتقي بها ... وبالتالي كان أول سؤال توجهت به للعجوز يتعلق بمصدر رزقها ... أخبرتني بأنها ترعى بعض الأطفال من أبناء الأكواخ المجاورة ممن تعمل أمهاتهم أثناء النهار في خدمة عائلات موسرة من سكان العاصمة، وتفرض عليهن ظروف العمل ترك الصغار حتى المساء. قالت لي أن هذا العمل يشبع لديها رغبة العطاء لأطفال البائسين الذين لا تملك شيئاً لهم سوى الحنان والرعاية، كما أنه يوفر لها لقمة خبز تعيش عليها. شردت بعيداً بذهني وأنا أستمع إليها تروي لي كيف أنها تنتظر ما تجود به أيدي ذوي هؤلاء الأطفال، فبعضهم لا يعطيها شيء ويكتفي بكلمات الشكر وشكوى الفقر وقلة الحيلة ، وبعضهم يأتي إليها ببعض الطعام مما يجود به الأثرياء ممن يعملون في خدمتهم، والبعض الآخر يأتي في نهاية كل شهر ليدس في يدها مبلغاً من المال تستعين به في سد حاجتها المتجددة للطعام والشراب وبعض الدواء.

مرت عدة أيام أنفقتُها أتجول أثناء النهار بين الأكواخ بحثاً عن شيء لا أعرف ما هو بالتحديد، حتى إذا ما حلَّ الليل بأحزانه فوق الرؤوس المكدودة ، والأزقة البائسة، عدت إلى حيث تنتظرني العجوز أمام الموقد لنتناول عشاءنا وننام ... وحين تأكدت من عدم قدرتي على إقامة علاقات مع الصبية من أترابي ، ولأسباب أيضاً لا أعرفها، فكرت في العمل ... لم يكن صعباً بالنسبة للعجوز أن تدبر لي عملاً من خلال علاقاتها الطيبة مع الجميع، وبدأت أول عمل في حياتي على عربة لجمع القمامة. كنت فقط أساعد الرجل الذي يتولى بنفسه جمع سلال النفايات من أمام أبواب المنازل، ويقوم بتفريغها في بطن العربة ... أما أنا فقد اقتصر دوري على الجلوس فوق العربة، وخلف البغل الذي يجرها لأوجهه وفق متطلبات العمل .

ظللت سنوات على هذه الحال، وكانت العجوز تستولي مني على المبالغ الضئيلة التي يمنحني إياها الرجل نظير قيامي بمساعدته، وذات يوم صارحتني ، وكانت قد صارت بالنسبة لي

بمثابة الأم والجدة في آن واحد ، برغبتها في شراء عربة لي أعمل عليها بعد أن كبرت وصرت مراهقًا، لم أكن أعلم أنها تقوم بادخار ما أعطيها من قروش قلائل أحصل عليها في نهاية كل يوم عمل ، فتعللت بعدم وجود المال الذي أشتري به العربة، لحُظتَئِذٍ، فاجأتني بما ادخرته لي ، وتم ما أرادت، وامتلكت عربة وبغلاً، وإن كانت العلاقة ظلت قائمة بيني وبين الرجل الذي أصبح مقاولاً كبيراً، وانتقل من منطقة الأكواخ بعد أن استأجر شقة في أحد أحياء العاصمة. استمتعت بنوع من الاستقلالية من خلال تخصيص ثلاثة شوارع لي أقوم بتنظيفها كل يوم لقاء أجر محدد من قبل المقاول الذي أصبح مسئولاً عن حي بأكمله يتولى تقسيم العمل فيه بين مجموعة من صغار المبتدئين أمثالي. .

قنعت بهذا العمل لعدة سنوات. لم أكبر في مهنتي مثل الآخرين ، ولم أتحول إلى مقاول كما هو المفروض، وإنما بقيت كما بدأت، كل ما فعلته هو أنني اشتريت فراشاً وغطاء لي وللعجوز،

وبعض الضروريات الأخرى التي أصبحت في متناولي، أما كيف أنفقت ما كنت أحصل عليه، فهذه قصة أخرى ، ذلك أنني منذ البداية شعرت بأن عليَّ واجباً تجاه أولئك الذين صاروا أهلي وعشيرتي ، هذا الواجب فرض عليَّ إقراض المحتاجين منهم وعدم قبولي باسترداد ما أقرضه وإنما تعدى ذلك إلى ما يشبه الالتزام تجاه الأطفال الصغار الذين كنت لا أطيق أن أرى أحدهم حافياً أو يرتدي جلباباً ممزقاً، وكان ما أحصل عليه في نهاية كل شهر يكفي بالكاد لسداد التزاماتي تجاه الجميع ، سواء العجوز ، أو جيراني من الكبار والصغار ...

لم تستطع تلك السنوات أن تمحو من مخيلتي صدى الأسئلة المبكرة التي طرحتها وصُدِمْتُ بعدم عثوري على أجوبة مفيدة، كل ما في الأمر أن إحساسي بالانتماء للعالم الذي أحاط بي جعلني أنجح مؤقتاً في الهروب من نفسي لأزداد التصاقاً بالآخرين. بقيت كذلك إلى أن أصابتني الفاجعة التي أعادتني إلى نقطة البداية مرة أخرى. فقد مات البغل إِثْرَ حادث تصادم لم يكن في الحسبان، فبينما أوقفته كالعادة بمحاذاة الرصيف أمام أحد البيوت ينتظر

عودتي بسلال القمامة التي أفرغها في بطن العربة ثم أعيدها إلى أماكنها قبل أن اقتاده إلى مكان جديد ، صدمته سيارة مسرعة. كان ذلك في صباح أحد أيام الصيف الحارة مما جعل دماءه تسيل بغزارة بعد أن سقط على الأرض، وما هي إلا ساعات قلائل، حاولت خلالها إنقاذه بطرق بدائية لم تكن ذات جدوى، فمات في مكانه في نهر الشارع ليتطوع أهل الخير باستدعاء عربة البلدية التي حملت جثته الضخمة لتلقي بها حيث مدافن الحيوانات في الصحراء. حزنت كثيرا لفقدان هذا الرفيق المطيع الطيب، والذي كان قد صار قريبا منى بحكم المعاشرة لأكثر من سنتين. ضاقت الدنيا في وجهي بعد أن تعطلت عربتي وتوقفت عن العمل، ولما لم أكن قد تعلمت مهنة سوى جمع القمامة، لذا فقد كان علي أن أبحث عن حل لمشكلتي، هداني تفكيري إلى أن أستبدل العربة الأولى بعربة أخرى أصغر لأستطيع أنا أن أجرها بدلاً من البغل. حاولت أن أكيف حياتي على هذا الأساس. ولكن القدر لم يتركني وشأني، إذ لم يمض على هذا الحادث سوى قرابة الشهرين، حتى لحقت العجوز بالبغل بعد مرض لم يدم طويلا. ماتت هي الأخرى، لأجد نفسي- بعدها

غريباً وكأني خارج لتوي من الملجأ. لم يعد لي من رفيق سوى ذكرياتي وأسئلتي المعلقة ونظرة واجمة تجاه الزمن والأحداث والناس. شيئاً فشيئاً، إذا بتساؤلاتي القديمة تتوارى، بل وتنسحق تحت وطأة إحساس صارم باحتقار الحياة استولى على كياني كله، وبدأت أفكر : كيف أستطيع أن أجعل من وجودي تعبيراً عن احتقاري لهذا الوجود. كيف أعبر للحياة عن احتقاري لها، كيف أتحدى كل ما يحيط بي، وأنا مخلوق مجهول النسب لا يملك شيئاً سوى ذاكرة مثقلة بالأحزان. .

وكان قراري بهجر الكوخ واختيار طريق آخر، وعمل آخر. وحين ألقت الأقدار في طريقي بهذا المقاول، لم أتردد لحظة في قبول ما عرضه عليَّ. لم يكن الأجر هو المهم بالنسبة لي. وإنما كانت تهمني أشياء أخرى تتعلق بذاتي ، وبالظروف التي تنسج مصائرنا وتحدد لنا الطريق ...

١٠

كنت أهتم بالتعقيب على رواية صاحبي حين فوجئت بتوفيق وهو يضع يده فوق كتفي قائلاً :

- لم يدر بخلدي أن أكتشف وجودك في هذا المكان .

كانت مفاجأته لي طوق نجاة انتشلني من حالة الوجوم التي تسبق ارتدادي إلى عالمي الداخلي حيث أفكر في أعماق الأشياء والأحداث. أعادني وصول توفيق المفاجيء إلى حيث نجلس أنا وصاحبي الراوي، ومن حولنا الليل بجلاله وقدسيته.

التفتُّ نحو توفيق في محاولة لاكتشاف ما قد تحمله عيناه من حنق أو غضب ، خاصة وأنه لا يتناول طعامه بدوني أبداً، والساعة تشير إلى ما بعد منتصف الليل. إذن لقد فرضت عليه الجوع والسهر هذه الليلة، وهو الذي يعود من عمله مكدوداً مرهقاً لا يفكر في شيء قبل أن يتناول طعام العشاء ويستريح قليلاً . قلت بلهجة اعتذار تنم عن اعترافي الضمني بالخطأ :

- أرجو أن تغفر لي وتقبل اعتذاري .

كان جوابه ضحكة قصيرة قال في أثرها :

- ظللت انتظرك دون جدوى ...

ثم أردف :

- أخبرني عبد الغنى أنك خرجت من غرفته بصحبة عبد الراضي، ولا يعرف أين أنت..

ثم أردف :

- بحثت عنك في كل مكان بالفندق، ولكنى لم أتوقع أبدًا أنك هنا مع صاحبنا هذا لتضيع وقتك في سماع حكاياته التي لا تنتهي. ظل عبد الراضي على صمته رغم قسوة التهكم.

غضبتُ من توفيق وعاتبته طالبًا منه أن يعتذر للرجل الذي لم يسئ إليه، ولكني حين نظرت إليه حيث كان يجلس قريبا مني، وجدته قد نهض من مقعده، واتجه بخطواته مبتعدًا وهو يحدق في النجوم المتناثرة. ناديته بلطف ينم عن اعتذار ضمني عما بدر تجاهه من صديقي توفيق. لم يهتم كثيرا واكتفى بالقول :

_ أنا وهو رفاق سكنى في هذا الفندق حتى قبل وصولك أنت وانضمامك إلينا.

اكتشفت أنه ليس بإمكاني أن أطيب خاطره أو أصحح خطأ توفيق، على الأقل في هذه اللحظات، فآثرت التوقف عند هذا الحد، ثم استأذنت في الانصراف على موعد باللقاء في الصباح الباكر حيث نمضي سوية إلى ذات العمل لدى ذات المقاول.

مضيت لألحق بتوفيق الذي كان قد سبقني في اتجاه السلم، وقبل أن أبدأ في الهبوط التفتُّ ورائي لأرى صاحبي عائداً إلى حيث كنا نجلس وقد أشعل سيجارة راح ينفث دخانها بطريقة عصبية. سمعته يناديني بصوت أقرب إلى الهمس ، فعدت مهرولاً.

قال :

- طلبت منك أن نأتي إلى هنا لتحدثني عما يحزنك، وها أنت عائد إلى غرفتك دون أن تبوح لي بشيء، بل تركتني أتحدث كالعادة دون أن تقاطعني.

قلت :

- ولكني استرحت لمجرد سماع روايتك .

قال :

- أشعر أنني قد عريت نفسي أكثر مما يجب.

ثم أردف وكأنه يحثني على اللحاق بتوفيق :

- أريد أن أبقى بمفردي بعض الوقت ...

ودعته ، ثم عدت لأهبط الدرج. كان توفيق قد سبقني إلى الغرفة حيث وجدته يعيد تسخين الطعام الذي تجمد قليلا بفعل تأثير الهواء البارد اللزج المندفع من جهاز التكييف الصحراوي.ساعدته بإعداد الطاولة الصغيرة وجذبها من مكانها في ركن الغرفة إلى حيث نضعها في مواجهة السرير حين نجلس لتناول الطعام. جلسنا متقابلين ورحنا نتناول الطعام صامتين للحظات. قلت بصوت منخفض وكأني أحاول استرضاءه :

- كنت في حاجة إلى بعض الهواء بعيدًا عن دخان السجائر في غرفة عبد الغنى فدعاني عبد الراضي إلى حيث وجدتنا جالسين.

رمقني بنظرة حادة وهو يقضم قطعة خبز يابسة ، ثم قال باقتضاب :

- ولا يهمك ....

بدأت أشاركه العشاء في صمت وكأني أسأت فعلاً إليه حين جلست أستمع لرواية صاحبي كل هذا الوقت دون أن أخبره بمكاني.

حدثتني نفسي بأن أنتظر حتى يملأ معدته، وبعدها يمكن لي أن أعاتبه على ما بدر منه ، ولكني فوجئت به وقد أعد لي تحقيقاً مطولاً حول الأسباب التي جمعتني بهذا الثرثار كما يصر أن يناديه ... قال ساخراً ونحن لم نفرغ بعد من تناول العشاء :

- صديقك الجديد ... ماذا لديه يا ترى ؟!

لم أجبْ وظللت أتظاهر بأن انتباهي كله مركز على الطعام .. فأضاف :

- معروف عنه أنه لا يغلق فمه أبداً ، ولا ينطق بجملة مفيدة ... أما كيف أضعت ليلة كاملة تستمع إليه ... فهذا ما يحيرني !!!

قلت دون أن أبدي اهتماماً :

- وماذا أيضاً ؟

- أنت لم تجبْ على سؤالي الأول حتى أنتقل إلى ما بعده ...

كان لابد أن أدافع عن ذلك المسكين ... على الأقل أمام توفيق الذي أثق من موقع كلماتي لديه بحكم عشرتنا الطويلة ، فقلت بعصبية متصنعة :

- أرجو أن تغير لهجتك حين تتحدث عن إنسان لا تعرف عنه شيئاً ..

قال ببرود وهو يحدق داخل عيناي :

- أعرف أنه ثرثار تافه ، لم يجد عملاً يقتات منه سوى هدم المباني وحفر القبور للموتى الجدد.

- ولكنهما عملان شريفان على كل حال.

قاطعني بضحكة ساخرة وهو يقول :

- دعنا منه ، وجدت لك عملاً جديداً ... ماذا تقول ؟؟

- لم يحدث ما يدعوني إلى ترك عملي . هكذا أجبته بلهجة أقرب إلى التحدي .
- ولكني أعلم أنك ضجر منه، وغير راض عما تقوم به.

قلت:

- لا يهم أن أكون راضيا. المهم أنه عمل، وأنني أدخر من أجرى بعض المال.

ثم أردفت :

- سأبحث عن عمل مختلف ولكن ليس الآن.

كنا قد انتهينا من تناول الطعام عند هذا الحد ، فنهضت من مقعدي ، وبدأت أنظف الطاولة من بقايا الخبز في حين انصرف توفيق إلى ترتيب الغرفة وتهيئة الفراش للنوم. ما هي إلا لحظات وكنا نغط في نوم عميق.

مضت تلك الليلة سريعة على غير العادة، وإذا بي أستيقظ في الصباح الباكر على صوت طرقات خفيفة، نهضت على عجل لاستطلاع الأمر فإذا به زميلي في العمل عبد الراضي. بادرني بتحية الصباح ، وأضاف :

- لم أنمْ ليلة البارحة ، ظللت جالساً كما تركتني ...

ثم أردف :

- جئت لأوقظك قبل أن أذهب لأغتسل وأبدل ملابسي- ... دعوته للدخول وقد بدت دعوتي له أقرب للمجاملة منها لأي شيء آخر. شكرني وهو ينصرف قائلاً :
- سأنتظرك عند باب الفندق، أرجو ألا تتأخر.

مضيت بدوري تجاه دورة المياه ، وبعد أن اغتسلت ، عدت إلى الغرفة حيث ارتديت ملابسي الخاصة بالعمل، وبدأت أعد طعام الإفطار قبل أن أوقظ توفيق، لم يستغرق كل هذا أكثر من دقائق معدودة أضعت معظمها في تهيئة كوبي اللبن والبيضتين المسلوقتين وقطعتي الخبز، نهض توفيق كعادته كل صباح من الفراش إلى طاولة الطعام. تناولت طعامي بسرعة ونهضت تاركاً له عملية ترتيب الغرفة وإزالة بقايا الطعام. كنا قد اعتدنا هذا النمط من الحياة منذ عودتي من المنتجع. في الصباح يتولى توفيق ترتيب الغرفة وتنظيفها نظراً لأنه يبدأ عمله متأخراً عني بساعة ونصف، وفي المساء أتولى أنا كل شيء. هبطت الدرج متوجهاً إلى حيث يجب

أن ألتقي صاحبي. كان إحساسي بحاجة عبد الغني إلى صداقتي ، وتعبيري الدائم عن بقائها قد فرض عليَّ منذ البداية ما يشبه الالتزام تجاهه. أراه كل صباح قبل خروجي من الفندق. أحييه، وأسأله بعض الأسئلة التقليدية عن الصحة والأحوال، وكيف أمضى ليلته. صحيح أنني ألقي بأسئلتي دون أن أنتظر جوابه على أي منها، ولكن هذا الأسلوب بالنسبة لي هو الوسيلة الوحيدة التي تجعله يشعر بأن اهتمامي به لم يفتر أو يقل. ألقيت نظرة إلى الركن المقابل لنهاية الدرج حيث تقبع الطاولة والمقعدين الخشبيين، وحيث اعتاد أن يجلس عبد الغني مع أول خيط من النهار ... التقاني بابتسامته التي تضفي على جبينه هالة من البشر والرضا. قال وكأنه ناسك فرغ لتوه من صلاة :

- بالأمس أتى إلى هنا شخص يسأل عنك.

أثار فضولي فتوقفت لأسأله باهتمام:

- هل ترك اسمه أو سبب سؤاله عني؟؟

قال :

- لا أعرف ، جاء وذهب دون أن أراه.

قلت :

- ليس هذا وقت الفوازير يا عم عبد الغني ... قلتها بطريقة أقرب إلى الملاطفة.

قال :

- حقيقة ، كنت قد ذهبت إلى السوق، تغيبت حوالي نصف ساعة. أتى أثنائها وسأل عنك ، ولما أخبروه بعدم وجودك أنصرف ... ولكن أفاد بأنه سيعود مرة أخرى .

قلت متبرما

- ليتك لم تقل لي شيئا يا رجل.

قال بأسلوبه الأبوي :

- الآن توكل على الله إلى عملك ، وحين تعود سأجعلك تلتقي بالأشخاص الذين قابلوه.

شردت بفكري لحظة لم تتعدَّ دقيقة واحدة قبل أن أودع عبد الغني بنقرة خفيفة على طاولته التي كنت أتكئ عليها بكلتا يداي أثناء الحديث ... ثم خرجت إلى حيث ينتظر صاحبي ، وانطلقنا معاً في طريقنا إلى العمل .

مضى ذلك اليوم، وحين أتذكره، أفهم كيف يمضي الآخرون سنينا من أعمارهم في انتظار مجهول لا يأتي أبدا. ففيما مضى من حياتي كنت أفكر في حياتي وأمثالي من الفقراء وأتساءل : لماذا نعاني الفقر وغيرنا يستمتع بكل شيء، ولماذا نرضى بهذه القسمة الظالمة ؟ والى متى ننتظر نعيم الجنة الذي ربما نعيشه بعد الموت ؟

ولكني هنا وبعد أن عشت تجربة الانتظار والترقب الذين أهلياني نهاراً كاملاً عما أنا فيه، أعترف بأن الفقراء معذورون حين يقضون أعمارهم في انتظار ما لا يأتي بينما عيونهم مشدودة إلى ما وراء الأفق، إلى ما بعد الموت.

فبينما الشمس تتربع في كبد السماء كسلطان جائر ، والغبار يتصاعد سحابات كثيفة تحتوينا تحت عباءتها حتى لنكاد نختفي عن أعين المارة ، وذراعاي يئنان تحت ثقل المعول وهو يرتطم بقوالب الآجر وكتل الأسمنت المتصلبة ، كنت مشغولاً بالتفكير في ذلك الذي أتى وذهب دون أن أراه ... نسيت كل ما أعانيه طوال نهار كامل ، ورحت أفكر فقط فيمن يكون ذلك الشخص، صديق قديم ؟ ... أحد أقاربي ؟ ... من يا ترى ؟ ...

أحد رجال المباحث ؟ ... أعوذ بالله ، لا علاقة لي بهؤلاء ... إذن لماذا لم يترك اسمه ؟ ... يريد أن يفاجئني ؟ ... ربما ... ولكن ...

هكذا انقضى واحد من أيام العمل، وإذا بالزملاء يلقون بمعاولهم استعداداً للرحيل. ألقيت أنا أيضا بمعولي ، واتجهت إلى حيث ألتقى زميلي الذي افترقت عنه منذ الصباح حين فرضت ظروف العمل على كل منا أن يعمل في جانب من جوانب البناية بعيداً عن الآخر. في طريق عودتنا إلى الفندق لاحظ صاحبي شرود ذهني وأنا أسير إلى جانبه قبل أن نصل إلى محطة الأوتوبيس فقال وكأنه يحاول استدراجي إلى الحديث :

- ملعون هذا الصيف ... الحرارة لا تطاق .

لم أعلق على ما قاله. ولكن بعد لحظة صمت، قلت وكأني أدعوه إلى مشاركتي همي الجديد :

- بالأمس جاء شخص يسأل عني ....

سألني بفضول:

- من يكون ....؟؟

قلت بدون اهتمام :

- لا أدري .... جاء وذهب بعد أن قال لمن قابلوه أنه سيعود هذا المساء .

قال وكأنه يريد أن يخفف عنى وطأة التوقعات :

- لا تشغل بالك بالأمر. سيأتي وتعرف من هو. ربما واحد من أقاربك.

انتظرت حلول المساء بفارغ الصبر ، وحين اقترب الموعد المعتاد لبدء توافد الزملاء على غرفة عبد الغني ، كنت أول من اختار لنفسه مقعدًا في مدخل الغرفة حيث جلست انتظر وصول الآخرين. وإن كنت في الحقيقة قد اخترت الجلوس قريبا من الباب حتى أكون أول من يلتقي ذلك المجهول الذي وعد بالعودة هذا المساء لرؤيتي.

مضت حوالي الساعة إلى أن اكتمل عدد الزبائن الذين أعرفهم يرتادون الغرفة كل ليلة ، وإذا بعبد الغني قادم نحوي تاركًا مكانه مع الشاي والأكواب ، قال وهو يشير إلى ثلاثة يجلسون معًا في زاوية معزولة :

- هؤلاء هم الذين التقوا صاحبك ....

نهضت من فوري متجهًا نحوهم ، ألقيت عليهم بتحية سريعة ، ثم سألتهم عن الشخص الذي أتى بالأمس يسأل عني ... نظر كل منهم في وجه الآخر بطريقة غبية ، ثم أخذوا يصفونه لي في صوت واحد وبطريقة أقرب إلى الصياح ثم ما لبثوا أن اختلفوا وراح كل منهم يقاطع الآخر ، والنتيجة الوحيدة التي اتفقوا عليها بعد أن نظر أحدهم في ساعته ، هي ضرورة انتظاري لوصوله بعد نصف ساعة .

عدت إلى مكاني القريب من الباب؛ لأنتظر الغريب القادم متظاهرًا لزملائي بأني معهم أشاركهم ما يتحدثون فيه. طال انتظاري، وقارب الليل على الانتصاف وأنا جالس أحملق في الفراغ الممتد خارج الغرفة، ولما انفض الجمع ، ووجدت نفسي وحيدا مع عبد الغني الذي كان قد بدأ ينظف أرضية الغرفة من أعقاب السجائر استعدادا للنوم، نهضت من مقعدي وأنا أضحك بسخرية لا تخلو من مرارة الإحساس بالهزيمة ، قلت للرجل الذي توقف عن مواصلة عمله وراح ينظر تجاهي من خلال ابتسامة حنون :

- لم يأتِ.

قال جملته وهو يقلب يده الخالية في الهواء دليل الاستسلام الذي لا يملك سواه.

ثم عادت اليد لتقبض من جديد على المكنسة الطويلة والتي كان يتكئ عليها واضعا نهايتها الخشبية تحت إبطه الأيمن ، ثم سحبها إلى الأمام بكلتا يديه واستأنف عمله من جديد في حين مضيت أنا في اتجاه الدرج صاعدا إلى غرفتي.

مضت تلك الليلة، واستيقظت في الصباح كعادتي، ومضيت إلى عملي راضيا بخفوت ضجيج التوقعات التي كانت قد أثقلني ضجيجها على مدى اليوم السابق. أنها عادتنا مع الأشياء التي لا تنصفنا. يخبو بريقها ونرضى رغما عنا بالتنازل عما كنا ننتظره. توقفت للحظة وأنا أقول وكأني أخاطب المجهول:

- ماذا دهاك يا زمن الانتظار والغد الذي لا يأتي ؟....

نطقت بجملتي وأنا واقف في أعلى البناية أثناء لحظات الاستراحة ، التي يتوقف فيها الواحد منا عن العمل لعدة دقائق، بعد أن يكون قد استمر يضرب بالمعول ساعة كاملة. سمعني صاحبي عبد الراضي الذي كان يعمل بالقرب مني ، وكان هو

أيضا متوقف عن العمل ومنهمك في إعادة شد حزامه حول خصره بعد أن كان قد ترهل بسبب كثرة الانحناء والوقوف، فقال وكأنه تذكر شيئًا مهما:

- اتخذت قرارًا خطيرًا.

لم أبد اهتمامًا بما قال رغم أنى التفت بوجهي نحوه. كنت مشغولاً بالتفكير في عبارتي التي نطقت بها من لحظات.

كانت قد مضت فترة غير قصيرة منذ اللقاء الذي جمعنا وروى لي خلاله قصته مع الحياة، لم نلتق بعدها على انفراد. لا أعرف سببا لذلك إلا حقيقة أنه رغم كل ما رواه لي، وكان من المفترض أن يقربني منه، إلا أن نوعا من الجفاء ظل يحول بيننا، ربما هي دوافع كامنة في اللاشعور تلك التي كانت تملي علي تصرفاتي معه، المهم أنني لم أنجح في إزالة حاجز الجفاء الذي ظل يبعدني عنه. صحيح أن علاقتنا ظلت قائمة ، ولكنها توقفت عند حد المجاملات التقليدية التي يفرضها علينا الذهاب إلى العمل والعودة منه معًا كل يوم ، قال لي ونحن في طريق العودة :

- لم تحاول معرفة قراري الخطير ؟

بدت على كلماتي نبرة اللامبالاة وأنا أقول :

- أنت تعرف القرار الذي أنتظره منك .

قال:

- إنه هو .....

تهللت أساريري وأنا أستوقفه غير مصدق إمكانية اتخاذه لهذا القرار ، فأنا أعرف الرباط الخفي الذي يشده إلى هذا العمل ، وبالتالي أقدر صعوبة تخليه عن فلسفة فرضتها عليه أيامه فأصبحت جزءا من وجوده ، فإعداد القبر وتجهيزه لاستقبال جثمان جديد، هو أحد الطقوس التي يتحدى من خلالها عدوا حرمه من أشياء كثيرة ولا يملك تجاهها سوى التشفي، إذن هل يعقل أن يتخلى عن السعادة التي تملأ الإنسان حين يشعر بقدرته على أن يتحدى عدوا أقوى منه؟

استحلفته بطريقة صبيانية أن يصدقني القول ، ولما سمعته يؤكد ما قاله في البداية ، ويضيف أنه مستعد لأن يترك العمل في هدم المباني أيضًا ، قلت :

- من الآن نحن صديقين .....

قال :

- من أجلك سأفعل كل هذا .

قلت :

- وأنا معك أيا كان العمل الجديد .

قال:

- العمل في انتظارنا ، ولكن .
- ماذا ؟ سألته متلهفًا :
- ربما لا تقبل به .

أجبته متسائلاً:

- وما أدراك ؟

قال بخجل :

- ماسح أحذية. أظن أن هذا عمل لا علاقة له لا بالموت ولا بهدم المباني.

قلت لأؤكد له قبولي لاقتراحه:

- المهم أن نكون معا. أنا متعب يا صاحبي من هذا العمل الشاق. أنظر إلى يداي وكيف تشققتا.

ثم أردفت:

- بالنسبة لي، ربما أجد في مسح الأحذية ما لم أجده في المعول وهدم المباني. لم ينقطع بيننا الحديث إلى أن وصلنا الفندق حيث افترقنا عند الباب الخارجي على وعد باللقاء في المساء.

في الساعة المحددة جاءني وقد بدا أمامي شخصًا آخر يختلف تمامًا عن ذلك اليائس المستسلم، والذي كنت انقبض من رؤيته ، جلسنا سوياً في غرفة عبد الغني ، واتفقنا على كل شيء، تكفَّل هو بشراء صندوقين جديدين بمعرفته، أما مستلزمات العمل من فرش وأصباغ وقطع قماش، فقد تكفلت أنا بشرائها من أحد المحال القريبة من الفندق، لم تأخذ مناقشة الاتفاق أكثر من نصف ساعة انتقلنا بعدها إلى الحديث عن أمور أخرى تحيط باختيارنا الجديد، ماذا سيقول الزملاء عنا لو رآنا أحدهم ونحن جالسين على أحد الأرصفة بين الذباب والنفايات التي يلقي بها المارة ؟

بالتأكيد سوف ينظرون إلينا بعيونهم التي لا ترى أبعد من تحت أقدامهم، ولكن لماذا نمنحهم الفرصة، ونعرض أنفسنا لاحتقارهم ؟ الميادين كثيرة في العاصمة وبإمكاننا أن نختار ميدانا بعيدا لا يعرفنا فيه أحد، ولا تصل إليه أقدام هؤلاء ، أما الصندوقان،

فسوف نودعهما كل مساء بعد أن ننتهي من العمل لدى أحد محال صبغ الأحذية ونستعيدهما في الصباح التالي/ نظير أجر ندفعه لصاحب المحل كل يوم .

اتفقنا على كل شيء، ولم نُضِعْ وقتا. بدأنا العمل الجديد من صباح اليوم التالي ودون أن يشعر الآخرون بأدنى تغيير في أسلوب حياتنا ، حتى موعد خروجنا للعمل والعودة منه، كنا حريصين على ألا يتغير. صحيح أنني لم أكن مقتنعًا بضرورة التخفي، كما أنني لم أجد في هذا العمل ما يخجلني، وناقشت صاحبي طويلا في هذا الأمر، بل ووصل دفاعي عن وجهة نظري إلى حد التهديد بحمل الصندوق والجلوس به أمام الفندق متحديا الجميع، ولكنه كان دائما ينجح في امتصاص غضبي، وتهدئة ثورتي لتنتهي نقاشاتنا آخر الأمر إلى الاستيقاظ مبكرا والتسلل إلى ذلك الميدان الذي وقع عليه اختيارنا من اليوم الأول.

مضت بنا الأيام كعادتها دون أن تتوقف أو تغير مسارها ، ورحت أندمج في عملي الجديد، وبمرور الأيام بدأت أستشعر لذة حقيقية وأنا أقبض بيدي على الفرشاة وأمررها بخفة فوق سطح

الحذاء، وعلى جوانبه لأراه في النهاية وقد تغير مرآه الكالح ليصبح لامعًا براقًا، يا إلهي كم هو رائع أن تترك يد الإنسان مسحة جمال على شيء تلمسه حتى ولو كان حذاء، في الأيام الأولى من العمل ، وقبل أن أصبح خبيرا بخفاياه، كنت أعود إلى الفندق متعبا، خاصة عنقي ورأسي اللذين كانا يتحملان تبعة فضولي ورغبتي في أن أتطلع إلى وجوه الزبائن والتعرف على سماتهم، بدافع الفضول ليس إلا، وشيئًا فشيئًا تأكدت أن الحذاء الذي بين يدي هو صورة صاحبه، وبالتالي فحين أتطلع في وجه الرجل وملابسه ، لم أكن أرى سوى صورة حذائه، لذا بدأت أتعامل مع الأحذية كأشخاص ، وإذا قادني فضولي إلى معرفة شيء عن الرجل الذي أمامي، أسأل حذاءه على الفور ، ما هي نوعيته، كم هو ثمنه التقريبي، منذ كم من الأيام لم يهتم صاحبه بتلميعه ، ثم ما هو شكل الحذاء، وكان الجواب يأتيني دائما دون حاجة إلى التطلع في وجوه الأشخاص، وحين كنت أقارن ما يقوله الحذاء بما تقوله الحقيقة، أي هيئة الرجل الذي يقف أمامي، ووجهه وعلاماته الفارقة، أصل إلى نتيجة

واحدة ، وهي أنه لا داعي لأن أرهق عنقي بالتطلع في الرجل مادام حذاءه بين يدي .

كان هذا العمل بالنسبة لي أشبه بسياحة يومية في عالم البشر ، أحببته لهذا السبب وبالرغم من أنني في نهاية كل يوم كنت أجد في جيبي ما يعادل أجر ثلاثة أيام كاملة من أجري السابق ، إلا أن ما شدني إلى هذا العمل لم يكن ما يدره علي من نقود ، بقدر ما يشبعه في أعماقي من فضول .

واستمرت العجلة في دورانها، ثم جاء الشتاء ، وبدأ يطاردنا بأمطاره ولفحات برده التي لا ترحم. اضطررنا إلى التنقل من مكان إلى مكان ، وكنا في اليوم الواحد نغير مكاننا خمس أو ست مرات بحثًا عن حائط يحمينا من قسوة الريح ، أو شرفة نجلس تحتها هربا من المطر ، وذات صباح ، بينما نحن نحمل صندوقينا ونتلفت يمنيًا ويسريًا لاستكشاف مكان نحتمي فيه من عاصفة رعدية لم تلبث أن بدأت تفرغ حمولتها من المطر الغزير فوق رأسينا و إذا برجل يستوقفنا، كان يرصد تحركاتنا طوال الأيام الماضية منذ بدأت المطاردة بيننا وبين البرد والمطر، كنت قريبا منه حين سمعته

يأمرني بالحضور إليه حيث يقف ، اقتربت لأعرف ماذا يريد في حين ظل صاحبي في مكانه على بعد خطوات قلائل متوقعا أن هذا الرجل هو أحد أصدقائي أو زبائني، ولكنه لم يلبث أن أقترب ليقف إلى جانبي حين سمع بعض كلمات الرجل وأسئلته لي، التي تركزت حول السر في اختيارنا لهذا الميدان، ولماذا ننتقل من مكان إلى آخر، اقتنع إلى حد ما بإجاباتي، ولكنه حين سألنا عن السر في اختيار هذه المهنة المحتقرة من كافة الناس بينما نحن شابين ممتلئين بالحيوية والعافية، لم يقتنع بأننا لم نجد عملاً أفضل، وكيف يمكن أن يقتنع بمثل هذا السبب إذا كان هو أحد المخبرين، قال أنه يراقب تحركاتنا في هذا الميدان منذ فترة طويلة، وأنه غير مستريح لوجودنا في هذه المنطقة .

قال أيضًا في معرض تخويفه المهذب لنا :

- لماذا لا تعملان في أحد المحال، على الأقل خلال فصل الشتاء ، مادام البرد هو الذي يجبركما على كثرة الانتقال من مكان إلى آخر .

تبادلت وصاحبي نظرة سريعة حين أشار علينا الرجل بهذه الفكرة ، حقيقة ، لماذا لا نتوارى داخل أحد المحال حتى

تنقضي هذه الأسابيع القاسية وبعدها يمكن أن نعود إلى مكاننا في هذا الميدان أو غيره من الميادين ؟

صحيح أننا سنتعرض للمساومة على جهدنا من قبل الإسكافي الذي سنعمل لديه، ولكن حتى في هذه الحالة، ومهما كانت المساومة جائرة ، فإن وضعنا سيكون أفضل بكثير مما نحن عليه الآن ، خصوصا وأن عينا صاحبنا ترصدان خطواتنا ، وهو الأمر الذي ربما لن نستطيع تحمله طويلاً .

شكرناه على فكرته أو نصيحته إن صَحَّ أن نسمي عملية الطرد هذه نصيحة ، ووعدناه بالبحث لدى محال الإسكافية عمن يمكن أن يكون في حاجة إلى خدماتنا ، بالطبع لم ننس إظهار امتناننا له على ما لمسناه من أسلوب مهذب تعامل معنا من خلاله ، قال وكأنه جاد في مساعدتنا :

- سأدلكما على محل لتصليح الأحذية وصبغها ، صاحبه صديقي .

قلنا في صوت واحد :

- وهل تعتقد أنه في حاجة إلينا ؟

أجاب :

- نعم ، ولكما معًا .

وراح يصف لنا الطريق إلى المحل بعد أن أخبرنا باسم صاحبه ، وباسمه هو حتى نذكره للإسكافي قبل أن نسأله عن العمل ، بالطبع لا ندري ما إذا كانت هذه المساعدة لوجه الله ، أم لضبط تحركاتنا والتحكم فيها ، وهل الأسماء التي ذكرها لنا هي أسماء حقيقية ، أم أسماء متفق عليها فيما بينه وبين الرجل الآخر الذي سنذهب إليه ، المهم بالنسبة لنا أن نجد العمل. انطلقنا في الاتجاه الذي وصفه لنا، وما هي إلا لحظات قلائل ووجدنا أنفسنا وقد وقفنا في مواجهة رجل مسن يجلس إلى ماكينة حياكة بدائية خاصة بحياكة الأحذية والجلود، تحيط به أكوام من أحذية قديمة. تطلع في وجهينا، وراح يتأمل الصندوقين اللذين نحملهما. لم ينبس بكلمة واكتفى بأن قلل من انحناءة ظهره المقوس على الماكينة التي

أمامه ليتأملنا مليًا. بادرناه بالتحية، ثم شرحنا له تفاصيل ما حدث. لم يساومنا، وإنما قال وهو يعود لينكفئ بوجهه على ماكينته مستأنفًا عمله في رشق الحذاء الذي كان بين يديه لحظة وصولنا :

- العمل مناصفة ....

قالها، ولاذ بالصمت. ظللت وصاحبي واقفين في انتظار أن يوضح لنا شروطه بطريقة أكثر تفصيلاً، ولكنه لم يفعل. استمر في عمله دون أن ينظر إلينا ...

اضطررت أن أخرج عن صمتي لأسأله :

- هل فهمت ما نريد ؟

توقفت قدماه عن الضغط على قطعة الحديد السفلى من الماكينة التي يعمل عليها ، ونظر إلينا من جديد وهو يقول ببرود يثير الأعصاب :

- ألم تسمعا .... قلت أن العمل مناصفة .

حاولت أن أنتهز الفرصة وأجعله يستمر في الحديث قبل أن يتركنا ويعود إلى استئناف العمل من جديد ، فقلت على الفور :

- ونحن قبلنا .

أجاب :

- هيا .... ضعا الصندوقين وأبدآ العمل .....

كان أول ما أثار انتباهنا ونحن نستعد لبدء العمل في مكاننا الجديد ، حالة الفوضى التي تغمر المحل والقاذورات التي تغطي كل بقعة فيه. تبادلت وصاحبي نظرة سريعة، ثم وضعنا صندوقينا جانبًا وبدأنا بتنظيف الأرضية ، ثم انتقلنا إلى محتويات المحل من علب أصباغ ومسامير وغيرها من معدات العمل لنعيد ترتيبها. أضعنا من وقت العمل حوالي الساعة، ثم بدأنا بجمع الأحذية المتناثرة في جوانب المحل، وجعلنا منها كومًا واحدًا، ثم أحضرنا صندوقينا لنضعهما بالقرب من الأحذية وبدأنا العمل. كان ذلك في اليوم الأول، ثم صار فيما بعد روتينا يوميا. نأتي في الصباح قبل أن يصل الرجل، أول ما نقوم به هو تنظيف المحل وإزالة مخلفات عمل اليوم السابق من قصاصات جلدية ومسامير معوجة وطين أو روث مما يكون عالقًا بأحذية الزبائن .

لم يحمل هذا التغيير بالنسبة لي أي جديد سوى انخفاض عدد الأشخاص الذين كنت أتأملهم كل يوم، وإن كان هذا الأمر قد سبب لي أحيانًا شعورًا بالملل ، إلا إن إحساسي بقصر المدة، وارتباطها بفصل الشتاء فقط، هذا الإحساس هو الذي جعلني إلى حد ما أتعايش مع ما أعانيه من ملل، كنت أقول لنفسي : إنها فترة قصيرة مرتبطة بظرف معين ، وحين يمضي هذا الشتاء الملعون سأعود من جديد إلى التطلع كما أشاء في وجوه الناس وأحذيتهم .

انقضى جلّ فصل الشتاء ونحن على هذه الحال، لم يستجد ما يعكر حياتنا سواء في العمل أو في الفندق. كان ما نعمت به من راحة البال خلال تلك الفترة قد أعادني من جديد إلى تذكر حبيبتي. رحت أكتب إليها بعد انقطاع طويل ، كتبت إليها كثيرا. أحيانا كنت أكتب رسالتين في اليوم الواحد. حدثتها في رسائلي عن كل شيء. كنت أصف لها كيف أحاول الانتصار على الأحزان وآلام البعاد ، وكيف تنقضي الأيام والليالي بين الهموم المحدقة، وأفراح العمر المؤجلة. الشيء الوحيد الذي لم أصارحها به هو حقيقة عملي في مسح الأحذية، لا أدري لماذا كنت أجبن عن

الاعتراف حتى للإنسانة الوحيدة في هذا الكون التي تقاسمني مشاعري. أوشكت في إحدى المرات أن أشرح لها نتفا مما مررت به في الماضي، وما أنا عليه الآن، وكيف أصبح معدل الأجر اليومي الذي يدخل جيبي يساعدني على التفكير في استقدام الزمن قبل أن يأتي، وأنني صرت من أولئك الذين يبررون الوسائل القذرة بالغايات النبيلة. ولكن بعد أن كتبت هذه الفقرة بالذات، توقفت طويلاً، ثم ما لبثت أن تناولت الرسالة ومزقتها ورحت أعيد كتابتها من جديد. فأنا لم أتخذ من مسح الأحذية وسيلة من أجل غاية بقدر ما كان هذا العمل في حد ذاته غاية بالنسبة لي سواء للهرب من جحيم العمل في هدم المباني، أو للحصول على زيادة في أجرى تعينني على اختصار فترة البعاد. كنت مقتنعا بما أمارسه ، ومع ذلك آثرت أن أجعل طبيعة عملي سرا أحتفظ به إلى أن يصير ذكرى، ولحظتها سأروي لحبيبتي كل شيء دون أن أخجل أو أتردد لنضحك ونتعانق طويلا بينما قلبانا يخفقان ساخرين من حماقة الزمن.

كنت سعيدا على كل حال خاصة حين أجلس لأكتب إليها، إحساس غامض يحتويني في كل مرة أجلس لأكتب رسالة إلى حبيبتي، فالحب، وبالرغم من كل ما قيل وكتب عنه على مر العصور، لم يزل سرا تحتفظ بخفاياه القلوب إلى أن تتوقف عن الحياة. فأنا مثلا، كنت أجلس إلى الطاولة وبمجرد أن أمسك بالقلم ، وأضع الأوراق أمامي، أجدني وكأني انتقلت إلى عالم سحري لا شيء فيه سوى الأمل وحبيبتي وأنا. أنسى كل ما يحيط بي. أدور حول الطاولة متأملاً السقف والجدران وأسماء السذج المخطوطة بالأحبار المتداخلة الألوان. كل شيء كما هو إلا أنا ، الغرفة لم تتغير ومظاهر البؤس بادية على كل ما أراه أو ألمسه، إلا إنني في تلك اللحظات أرى بعيون أخرى، وألمس بحاسة خفية، فلا أعايش من كل هذا العالم سوى العشق وما يأخذنا إليه من عوالم غير واقعية مغلفة بالشقاء اللذيذ وأوهام السعادة الأبدية. أعود من جديد إلى أوراقي لأكتب وأكتب، وما أن أتوقف وأضع الرسالة داخل الغلاف، إذا بي أشعر بالمرارة تكتنف أمنياتي، وأتبين من جديد كم هي بعيدة المنال، ولحظتها أفكر في الهرب إلى الانتظار.

كنت أهرب من مرارة الواقع وظله الثقيل إلى رسائل حبيبتي التي كانت قد بدأت تصلني بانتظام بعد فترة انقطاع لم تدم طويلا، وانتهت بعودتي من المنتجع وتسلمي للرسائل التي كان يحتفظ بها توفيق. تلك الرسائل التي غيرت كل ما في عالمي. ليتها لم تصل بما حملته من مفردات لغة جديدة تعلمتها حبيبتي وراحت تكتب لي من خلالها. فمنذ ذلك اليوم وبعد أن قرأت الرسائل الثلاث التي سلمني إياها توفيق، بدأت أشعر أنني وحبيبتي نكتب بلغتين مختلفتين، فبينما أنا في رسائلي لا أتحدث سوى عن الأمنيات، والغد الآتي، وليالي العمر القادمة، إذا بي لا أقرأ في رسائلها سوى التعلق المجنون بذكريات الماضي، بدا ذلك في رسائلها التالية التي رحت أتسلمها بنفسي بانتظام بعد عودتي إلى الفندق، كانت تتحدث فقط عما كان في الأيام الخوالي حين كنا قريبين، أما الحاضر فلا تصفه إلا بنبرة العزوف والزهد ، وحين أثار هذا الإحساس مخاوفي، رحت أبحث عن المستقبل وكيف تحاول تصوره، أتيت بعدد من رسائلها التي وصلتني مؤخرا. قرأتها عدة مرات علني أشتم رائحة الأمل في سطر واحد أو كلمة أو حرف، ولكني لم أجد سوى ترنيمات

حزن، وخوف غامض من مجهول. كومت الرسائل أمامي وأنا أحاور الجدران الصامتة، أطلقت لظنوني العنان. تمنيت لو أني وجدت في كلماتها معنى للهجر أو الخيانة أو الكذب أو الخداع ، كان ذلك سيريحني من مرارة لا أستطيع تحملها. كان مما يضاعف حيرتي ذلك الحزن الذي يقطر من كل كلمة تكتبها. لم أشعر بها تجبني كما أشعر وأنا أطالع رسائلها الآن، ولكني أيضًا لم أشعر بها حزينة واجمة مثلما هي هذه الأيام. هناك سر لا أعرفه. فحبيبتي التي أمدتني بجرعات الأمل حين كاد اليأس أن يقتلني، لم تعد كما عرفتها. تغيرت كثيرًا. ماذا بها ؟ هل نسيت كل ما كانت ترده على مسامعي أيام محنتي ؟ لقد تركت الحديث عن الأمل وها هي تغرق نفسها في بحار الذكرى وكأنها تهرب إلى الماضي خوفًا من مواجهة المستقبل. بدأت أحزانها تفرض على حياتي ظلاً ثقيلاً من الكآبة والشرود، لدرجة نسيت معها ما كنت أنعم به من راحة البال، لذا لم أتردد في أن أصارح رفيقي توفيق بحقيقة ما أعانيه، بعد أن صرت غير قادر على التحمل والكتمان .

قلت له ونحن جالسين في زاوية من المقهى الذي نرتاده في لحظات الضيق :

- ضاقت صفحات الرسائل ، ولم تعد قادرة على احتواء أحزاني ....

لم يشاركني آلامي كما كنت أتمنى ، واكتفى بأن قال :

- أحيانًا الحب يعادل الجنون .

قلت بيأس:

- ولكنه الحزن ...

قال وهو يدعوني إلى احتساء فنجان القهوة، الذي كان الصبي قد وضعه أمامي على الطاولة :

- هوِّن عليك .... كل ما في الأمر أن حبكما من نوع خاص ....

ثم أردف :

- لقد قلت لك منذ البداية ... دواؤكما هو القرب .....

- ولكن ....

قبل أن أتم جملتي قاطعني مكملاً :

- أما آن الأوان لأن تفكر في رحيلك أو مجيئها ؟

في هذه اللحظة ، تذكرت أني لم أصارح توفيق بحقيقة عملي في مسح الأحذية ، وبالرغم من إحساسي بوخز الضمير طوال الفترة الماضية بسبب استمراري في أكذوبة سخيفة لا معنى لها ، وهي إخفاء حقيقة عملي عنه ، إلا أنني كنت أنتظر اللحظة المناسبة لأعترف له ، فأنا أعرف مقدمًا أنه سيعارض استمراري في هذا العمل ، وسيطرح البدائل الأفضل ، وإن تعقدت الأمور ، فسيفرض عليَّ أن أقاسمه أجره إلى أن أجد عملا مناسبا، ولكني كنت واثقا من أنه لن يقدر مدى شعوري بالالتزام تجاه صاحبي وزميلي الذي ما قبلت بهذا العمل إلا لأنتشله من بين القبور التي تعفر وجهه كل يوم .

هل جاءت لحظة الاعتراف ؟

سألت نفسي قبل أن أجيبه على سؤاله الأخير ، ثم لم ألبث أن قلت :

- هل تقبل اعتذاري ؟

سألته وكأني مقدم على اعتراف خطير. فقال ليخفف عني وطأة ما أنوى الاعتراف به:

- لا مجال للاعتذار بين الأصدقاء. ثم عمَّ تعتذر ؟

قلت بلا تردد:

- عن نذالتي ....

قال ممازحًا :

- أنت آخر من يمكن وصمه بهذه الصفة. أنت إنسان بكل المعاني.

قلت وكأني لم أسمع مديحه لي:

- أشعر أنني ارتكبت جريمة في حقك ، وأنني مستمر في ارتكابها كل يوم .

- ماذا تعني ؟ .... سألني مندهشا ...

قلت :

- أعني أنني أكذب عليك منذ قرابة ثلاثة شهور .

قال دون أن يبدى اكتراثا :

- وأنا أعلم .

كان رده هادئا مما أثار دهشتي ، فلم أصدق ما سمعته وقلت من جديد :

- تعلم أنني كاذب ؟

- ليس بالضبط ، وإلا كنا قد افترقنا ... ولكني أعلم أنك تخفي عني حقيقة اختيارك المجنون لعمل مثل تلميع وتصليح الأحذية ....

ثم أضاف :

- ما أرقني وجعلني أفكر طويلاً هو اختيارك – أنت بالذات – لهذا العمل .

قلت مستعطفًا إياه:

- هل تغفر لي خيانتي ؟ قلتها بأسلوب امتزج فيه الاستعطاف بالسخرية .

قال :

- ليست خيانة على كل حال ، المهم الآن أن تجيب عن سؤالي ، لماذا ؟

كانت قد عاودَته ابتسامته الحبيبة إلى قلبي وهو ينطق بجملته الأخيرة ، فأحسست بنوع من الراحة بعد أن تملكني شعور المذنب طوال اللحظات السابقة.

قلت :

- كلما تدنى العمل وصار أقل احترامًا في عيون الناس ، كلما ارتفع الأجر .

ضحك بسخرية وهو يضيف :

- ربما لهذا السبب يحصل الحكام وعمال النظافة على أعلى الأجور .

ثم لاذ بصمت قطعته بقولي :

- الآن وضعي المالي لا بأس به .

- بعد ثلاثة شهور فقط ؟

سألني دون أن يخفى دهشته. قلت:

- لا تنسَ أنني لم أتوقف عن العمل طوال الشهور السابقة .

قال مازحًا:

- المهم، أن تريحني قريبًا من هموم حبك .

سايرته في مزاحه قائلا :

- لأبدأ في طلب مساعدتك لي في حل مشاكلي الأسرية ؟

ثم ضحكنا ، وانتهى الحديث عند هذا الحد، ونهضنا لنغادر المقهى في طريق العودة إلى الفندق .

١١

كانت نسمات الربيع الطرية والمشبعة بنوع من الدفء تهب على استحياء وكأنها تدعو الكون للخروج من قمقم الشتاء ، وحفيف الأشجار الممتدة مع امتداد الشاطئ والتي بدأت أوراقها تنبت من جديد، يحدث أصواتًا أشبه بمقطوعات موسيقية غير متناغمة .

قلت لرفيقي بعد أن غادرنا المقهى ببضع خطوات :

- ها هو الشتاء يلملم أوراقه استعدادًا للرحيل .

أمسك بذراعي وهو يقول :

- ولا غيوم في الأفق أو زخات مطر..

- إذن ماذا لو عدنا إلى الفندق سيرًا على الأقدام ؟

تأبط ذراعي وكأنه يخبرني بموافقته الضمنية. سرنا في الطريق الطويل المحاذي للنهر، تحدثنا في أشياء كثيرة ، بعضها من ذكريات الماضي، وبعضها محاولات لاستشراف المستقبل، وبينما نحن نتبادل أطراف الحديث إذا به يتوقف عن مواصلة المسير وهو يمسك بكتفي قائلاً :

- كِدْتُ أنسى .

- ماذا ؟

سألته دون اهتمام.

قال:

- أمر مهم جدًا يتعلق بك .

- أمر مهم يتعلق بي ..وما هو ؟

بدت لهجتي أقرب إلى السخرية.

أوشك أن يصارحني ، ولكنه تراجع في اللحظة الأخيرة قائلاً :

- سأجعلها مفاجأة

ألححت عليه أن يريحني ويخبرني عن ماهية هذا الأمر، ولكنه أَصَرَّ على تأجيله وهو يستأنف السير . ثم لم يلبث أن أردف بلهجة آمرة:

- غدًا ، تعود من عملك مباشرة إلى المقهى ، لا داعي للعودة إلى الفندق .

أثار فضولي أكثر فسألته دون أن أفكر:

- وماذا أفعل في المقهى ؟

- ستجدني في انتظارك ، ولحظتها ستعرف كل شيء .

ثم أضاف :

- سيتغير في حياتك الكثير .

لم أُعِرْ جملته الأخيرة أدنى اهتمام ، فأنا لم أكن يومًا من أولئك الذين تتغير حياتهم بالمفاجآت ؛ لذا وعدته بتنفيذ ما أراد وأنا أنتقل بالحديث إلى موضوع آخر .... فسألته عن كيفية اكتشافه لطبيعة عملي .

ضحك وهو يشرح لي :

في الأيام الأولى من انخراطك في هذا العمل، لاحظت أن ثيابك تعلق بها بعض الأصباغ، وفي أطراف لا تلاحظها أنت بسهولة، ثم أخذت بقع الأصباغ هذه تزداد كل يوم بقعة أو اثنتين، كما لاحظت أيضا أنك بمجرد اكتشافك لوجود هذه البقع، تسرع إلى الحمام خفية وتزيلها، ولكنها لا تلبث أن تعود للظهور من جديد في اليوم التالي، ومع ظهور هذه البقع على ملابسك ، بدأت أشم رائحة الأصباغ الخاصة بالأحذية تعبق الغرفة خاصة حين نكون متواجدين معًا . كل هذا لم يجعلني أتوقع أنك تعمل في صبغ الأحذية، إلى أن دققت النظر في أظافر يديك، فوجدتها متسخة بنفس الأصباغ التي تكون

عالقة بملابسك وتسارع إلى إزالتها محاولاً إخفاءها عني، بدأت أهتم بمواعيد خروجك للعمل وعودتك منه، وأقارنها بما كنت عليه في السابق، فتبين لي أن هناك تغيرا ما يتعلق بعملك، في النهاية قادني الفضول إلى التسلل في إثرك ذات صباح، وكانت المفاجأة حين رأيتك وصاحبك تنتهيان إلى الميدان إياه وتجلسان متجاورين وأمامكما صندوقيكما الخاصَّان بمسح الأحذية. من يومها احتفظت بالسر لنفسي في انتظار أن تخبرني بشيء ، ولكن طال انتظاري .

قهقهت على غير عادتي وأنا أنصت إلى أسلوب توفيق الذي جمع بين السخرية والتندر ، ثم قلت معقبًا على روايته :

– لو أنك انتظرت قليلاً ، لعرفت كل شيء دون أن ترهق نفسك بمتابعتي .

كان الفندق قد أصبح على بُعد أمتار قلائل حين غيرنا دفة الحديث ورحنا نتبادل الرأي حول طعام العشاء ، وما إذا كنا في حاجة لشرائه من أحد المطاعم أم أن لدينا في غرفتنا ما يمكن أن

نتناوله قبل أن ننام ، اتفقنا في النهاية على أن نعرج على المطعم القريب من الفندق ونتناول عشاءنا فيه قبل أن نصعد إلى الغرفة .

في اليوم التالي ، وفي الموعد المتفق عليه فيما بيني وبين توفيق ، كنت أجلس على المقهى في انتظار المفاجأة التي ستغير حياتي كما وعدني بطريقته التي لا تخلو من مبالغة. رأيته قادما بعد دقائق من وصولي، بادرني بالتحية، ثم سألني عما إذا كنت قد تناولت غذائي، فأجبته مقترحًا أن نرسل أحد الصبية العاملين في المقهى ليشتري لنا طعامًا خفيفًا من أحد المحلات القريبة ، ثم أعقبت اقتراحي بالقول :

- طبعًا إذا كان انتظارنا للمفاجأة سيطول .

ابتسم وهو يخرج من جيبه ورقة مالية ويعطيها للصبي الواقف بجانب الطاولة، والذي ينتظر ما نوصي به من مشروبات ليقوم بإحضارها .

قال له وهو يشير نحو أحد محال البقالة القريبة من المقهى :

- هذا المحل يبيع سندوتشات محشوة بالجبن والمربى ، أحضر لنا أربعة .

انطلق الصبي لينفذ ما أمرناه به ، في حين جلسنا نتبادل القفشات، قلت له في معرض حديثي الساخر عن مفاجأته المتوقعة :

- لتعلم أن ما أتى بي إلى هنا ، ليس المفاجأة بقدر ما هو الفضول .

قال وكأنه يجاريني في سخريتي :

- المهم أنك أتيت .

- ولكن أما آن لي أن أعرف شيئًا عن المفاجأة ؟

أجاب وكأنه لا يعير الأمر أدنى اهتمام :

- صديق قديم يود أن يراك ...

ثم أردف :

- لن أخبرك بشيء آخر حتى تلتقيا ، ولحظتها سنطرح كل شيء .

كان الصبي قد عاد في تلك الأثناء حاملاً السندوتشات التي أوصيناه بشرائها ، بالإضافة إلى زجاجتي مياه. وضع ما يحمله أمامنا على الطاولة ثم تركنا وانصرف إلى خدمة زبائن آخرين كانوا ينتظرون عودته. قبل أن نفرغ من تناول الطعام فوجئت بيد تربت على كتفي وقد تعمد صاحبها أن يأتيني من الخلف لأفاجأ به، استدرت بوجهي لاستطلاع الأمر، فإذا به يوسف صديقي ورفيقي أيام المنتجع، نهضت لأحتضنه وأنا أغالب دموعًا لم أستطع منعها.

كان هو الآخر قد راح يقبلني عبر دموعه التي سالت بغزارة. لم ينطق بكلمة واحدة، وأنا أيضا. كانت دموعنا في تلك اللحظات أبلغ من كل تحية يمكن أن نتبادلها.

كان توفيق قد جلس يراقبنا، حتى إذا ما جاء دوره في الترحيب بيوسف ، نهض من مقعده وعلى شفتيه ابتسامة عريضة، احتضن يوسف وهو يقول :

- مرحبًا ابن الصعيد الوفي ....

ثم استدار ليجذب مقعـدًا ثالثًـا وهـو يضـيف موجهـا حديثـه إلى يوسف :

- كثيرًا ما حدثني صادق عنك ، ولكني لم أكن أتوقع أن مـا بيـنكما أقرب إلى الأخوة كما لاحظت الآن .

قلت وقد بدأ جو المرح يسود المكان :

- الصداقة أحيانًا أقوى من رباط الدم ....

ضحك توفيق بخبث؛ وهو يقول :

- والصديق يمكن أن يصير عشيقًا ؟؟؟؟

قلت متصنعا الوقار وكأني أفسر نظرية غامضة :

- هذا في حالة العلاقة بين رجل وامرأة ، أما إذا تعلق الأمر بالعلاقة بين اثنين من جنس واحـد ، طبعًـا في حالـة خلوهمـا مـن أمـراض الشذوذ ، ففي هـذه الحالـة تكـون الصـداقة مـزيج مـن التواصـل والوفاء والحب .

ضحك رفيقاي ، ثم قال توفيق وهو يسعل من كثرة ما ضحك :

- أظنك قد عرفت المفاجأة .....

ثم أردف وهو يشير بوجهه نحو يوسف :

- كنت واثقًا أنك ستفرح كثيرًا برؤيته ....

كان جوابي على جملة توفيق الأخيرة، حالة من الوجوم، وشرد ذهني بعيدا. تذكرت خيطًا طويلاً من الأحداث وأنا أرى صورة المنتجع تتجسد أمامي، والعاملين فيه سواء أكانوا زملائي أم رؤسائي يروحون ويجيئون. ترى ماذا يقولون عني حين يأتي اسمي عرضًا في مجرى حديث أو مناقشة ؟ حقير ، نذل ،جبان ، كل الصفات القذرة في قواميس اللغة لن تكون كافية بعد أن أتيت فعلتي المشينة وطُرِدْتُ من عملي بفضيحة .

من المؤكد أن لعنات العاملين في المنتجع لن تصب على اسمي لمجرد محاولتي الحمقاء مع نجوى، وإنما لأنني استطعت أن أخدع الجميع لفترة طويلة مما جعل أقراني يسعون إلى صداقتي، ورؤسائي يعاملونني بنوع من الاحترام الذي لم يكن يتناسب أبدًا وتواضع العمل الذي أؤديه. أستغفر الله، هأنذا أعود من جديد إلى دوامة الشك في عدالة السماء.

لماذا أتيت يا يوسف لتعيدني إلى هذا الجحيم ؟ إنني أحاول الهرب إلى النسيان، فلماذا تأتي اليوم لتجبرني على العودة إلى الوراء لأتذكر ذلك اليوم الأغبر ؟ أنت وتوفيق الوحيدان من هذا العالم الواثقان من صدق روايتي ، ولكني أشك في أن كلاكما لم يزل يتذكر الواقعة، كما تتجسد أمامي في هذه اللحظات بكامل تفاصيلها ، ما يؤلمني هو أنني لم أستطع إثبات براءتي .

كان رفيقاي قد لاحظا حالة الوجوم التي احتوتني ، فراحا يطرقان معًا على الطاولة طرقات مرحة استعادتني من جديد إلى حيث نجلس ، وعلى شفتي ابتسامة مغتصبة .

قال يوسف وكأنه قرأ ما كان يدور بذهني :

- لماذا انقطعت أخبارك عني كل هذه الفترة ؟

أجبته بنبرة حزينة :

- بأي وجه أعود أو حتى أكتب إليك ؟

ثم أردفت :

- لو تدري كم أشعر بالخجل من نفسي الآن ، لمَّا أتيت لزيارتي ...

قال وكأنه لم يسمع كلماتي الأخيرة :

- ظللت انتظر رسائلك دون جدوى ، فلم أجد بدا من المجيء ....

قلت ببرود :

- إذن أنت لم تزل حريصًا على صداقتي ؟؟

نظر إلى مندهشًا وكأنه لم يفهم ما أعنيه ، فقلت :

- أفهم من هذا أن إحساسك تجاهي لم يتغير ؟

- ولماذا التغير ؟

- لأني نذل ، طُرِدَ من عمله بفضيحة ....

ضحك بصوت عالٍ وهو يضرب الطاولة بيده قائلا :

- هل أخبروك بحضوري لزيارتك قبل هذه المرة ؟

- متى ؟؟؟

سألته بوجوم ...

- منذ فترة طويلة .

تذكرت على الفور ذلك المساء ، حين أخبرني عبد الغني بأن شخصًا أتى وسأل عني، وحين أخبروه بعدم تواجدي في الفندق،

ذهب بعد أن وعد الزملاء الذين قابلوه بالعودة في مساء اليوم التالي ولكنه لم يعد .

فسألته لأتأكد من قوة ذاكرتي :

- ولماذا لم تعد كما وعدت الزملاء الذين التقوا بك ؟

أجاب :

- لم أستطع لظروف خارجة عن إرادتي ....

ثم لاذ بصمت حاول خلاله تذكر الأسباب التي منعته من العودة ، وقال :

- لا أذكر الأسباب بالضبط ...

خنقتني عبرة بح معها صوتي ، ورحت أقول :

- ما يعذبني، هو أننا أحيانًا نجبر على الاستسلام لأحكام جائرة. فأنا بريء ، ولكني الآن في نظر كل من عرفني من العاملين في المنتجع، وربما النزلاء أيضا ذلك الشخص الذي طرد بسبب محاولة اغتصاب امرأة شريفة. نجوى فقط هي التي تعلم من منا يستحق الرجم حتى الموت ...

قاطعني يوسف قائلاً :

- وامرأة أخرى بالإضافة إلى نجوى ...
- من ؟؟

سألته باهتمام ....

- لا يهم اسمها لأنك ربما لا تعرفه ... هكذا كان جوابه مما جعلني أسأله مندهشًا :
- أرجوك أريد أن أفهم ....
- الفتاة التي خرجت إليك لتسلمك أوراقك وتأمرك بالذهاب إلى قسم الحسابات لتقاضي مستحقاتك ....
- آه ... تذكرتها ....

قلت ذلك قبل أن أسمعه يضيف :

- تعاطفت معك ، وعاشت طوال الفترة التي أعقبت رحيلك، هَمُّهَا الوحيد أن تثبت براءتك، كانت واثقة من صدق كل كلمة سمعتها منك .

قلت بصوت أقرب إلى الهمس :

- الآن تتجسد صورتها أمامي وهي تمد يدها نحوي بالأوراق ، وفي عينيها نظرة احتقار كادت تقتلني .... لم أتحدث إليها طويلاً ...

قال يوسف :

- لم تتحدث، ولكنك سحبت ورقتين فقط من مجموعة الأوراق التي كانت بيدها واعدت إليها باقي الأوراق .
- هذا ما حدث ، أخذت شهادة الثانوية ، وشهادة إثبات كوني طالبًا أدرس إدارة الأعمال .

كان توفيق يشاركنا بالإصغاء فقط، إلى أن وصلنا في حديثنا عند هذا الحد ولحظتها خرج عن صمته قائلاً :

- ألم أقل لك أن المفاجأة ستغير في حياتك الكثير ؟

ثم نظر إلى يوسف بطريقة لم أفهمها ، وإذا بيوسف يتناول خيط الحديث قائلاً :

- الليلة نقضيها سويا هنا ، وغدا ستذهب معي إلى المنتجع .

حدقت في عينيه وأنا أستعيد كلمات توفيق حول المفاجأة التي ستغير حياتي. حاولت أن أستنتج لنفسي نتيجة أستريح معها،

ولكن توفيق لم يتركني أفكر طويلا، فقال وكأنه يفرض على ذهني مزيدا من التشتت :

- عندما نصل إلى الفندق يجب أن تخبر صاحبك .

- بماذا ؟

سألته باستغراب، هو لا شأن له بماضي حياتي.

قال توفيق:

- لا....أنا أقصد أن تخبره بأنه سيذهب إلى العمل بمفرده صباح الغد .

- ولكني لم أوافق بعد على الذهاب مع يوسف .

قلت ذلك وأنا أتوجه بحديثي إلى رفيقي وفى ذهني كيف يمكن لي أن ألتقي برفاق المنتجع بعد كل ما حدث..

قال توفيق وكأنه يتحدث نيابة عن يوسف:

- ستوافق ، وستذهب معه في الصباح الباكر .

بدت لهجته واثقة وكأنه يقرر نيابة عنى. طريقته في الحديث جعلتني أتوق إلى معرفة شيء مما اتفق مع يوسف على أن يخفيانه عني، فالاثنان كانا قد التقيا معا مساء أمس حين وصل يوسف من

المنتجع وجاء إلى الفندق للمرة الثانية يسأل عني، ومن حسن الحظ أن توفيق كان هو الشخص الذي قابله، وبالرغم من أنها كانت المرة الأولى التي يلتقيان فيها، إلا أنهما تفاهما بسرعة ، وأخبر كل منهما صاحبه بما يعرفاه عني .

كان هذا ما استنتجته لنفسي- وأنا أرى النظرات المتبادلة ، والابتسامات بين صاحبي .... فسألت يوسف :

- كيف أعود إلى المكان الذي طُرِدْتُ منه ؟

أجابني :

- المهم أن لا نفقد احترامنا لأنفسنا .

- أشعر بكما تخفيان عني شيئًا ما ؟

قلت ذلك وأنا أنقل نظراتي بين الاثنين ...

كان رده ضحكة شاركه فيها توفيق ، ثم قالا في صوت واحد :

- غدًا ستعرف كل شيء .

ثم نهضنا جميعًا عائدين إلى الفندق .

كان صاحبي – الذي أوصاني بعدم ذكر اسمه عند الحديث عنه – يجلس في انتظاري وقد بدا القلق واضحًا على محياه،

وجدته يجلس بمفرده في غرفة عبد الغني وعيناه مشدودتان إلى الباب لمراقبة الداخلين. ما أن رآني قادمًا بصحبة يوسف وتوفيق حتى تهللت أساريره ونهض من مقعده ينتظر وصولي. ألقيت عليه التحية وأنا أقف في مواجهته في حين واصل رفيقاي طريقهما صاعدين الدرج إلى الغرفة .

قال وعيناه تغمراني بحنان أخوي نادر:

- تأخرت قليلاً ....

ثم أردف :

- انشغلت عليك لانصرافك من العمل مبكرًا على غير العادة، ثم غيابك حتى هذه الساعة ...

أبديت اعتذاري وأنا أربت على كتفه قائلاً :

- جاءني صديق قديم وكان لابد أن أرحب به.....

ثم أضفت :

- كان لابد من القيام بواجب الضيافة ...

لم يحاول السؤال عن اسمه أو عمله ، فقط سألني عن مدة بقائه معي وهو يقول:

- أرجو ألا يأخذك مني .

قلت حتى لا يفاجأ لاحقًا :

- أنه يدعوني للذهاب معه لزيارته في عمله ومحل سكنه.
- وستذهب ؟؟ ... سألني بصوت خافت .

قلت لأطمئنه:

- ربما ليوم واحد فقط ... سوف أصحبه غدًا في الصباح الباكر ، وأعود آخر النهار.
- وإذا تأخرت ؟

سألني وكأنه طفل متعلق بأحد والديه:

- لن يحدث ... ملابسي وحقيبتي هنا في الفندق ...

قلت ذلك لأؤكد له إصراري على العودة في الموعد المحدد .

عاد يسأل وكأنه يتوقع غير ما أَعِدُ به :

- ولكن دعني أفترض أنك لم تعد غدا ، كيف أتصرف ؟

أخرجت من جيبي ورقة وقلما و وكتبت له عنوان المنتجع، وموعد وصول ومغادرة السيارة الوحيدة التي تذهب إلى هناك، ثم دسست الورقة في يده وأنا أقول :

- إذا لم أعد غدا لأي سبب، فهذا هو العنوان، يمكنك أن تأتي إن أردت ..

ثم ودعته عند نهاية الممر، واتجهت إلى الغرفة للحاق بيوسف وتوفيق.

أمضينا مساءً ممتعًا ثلاثتنا. تحدثنا كثيرا ، وضحكنا كثيرا، وتبادلنا النكات والقفشات، التي جعلت من الغرفة في تلك الليلة مكانا جميلا يضم ثلاثة من الشبان السعداء رغم كل ما يحيط بحياتهم من مواجع. وكان عبد الغنى كريما كعادته حيث أحضر مرتبة إضافية وفرشها في أحد الأركان الخالية من الغرفة. حتى إذا حلت ساعة النوم ألقى كل منا بجسده المنهك فوق الفراش الذي يجلس فوقه وقضينا ما تبقى من الليل نغط في نوم استفقنا منه على طرقات عبد الغنى على الباب لإيقاظنا. كان قد أعد إفطارًا لنا نحن الثلاثة في غرفته دعانا إليه حين فتحت أنا الباب استجابة لطرقاته حيث قال:

- الإفطار جاهز يا أستاذ صادق لكما وللضيف.

شكرته بامتنان وأنا أعده باللحاق به بعد قليل.انقضت لحظات الصباح المبكر سريعة لننتهي من تناول إفطارنا وتوديع عبد الغني وانطلاق توفيق إلى عمله بعد أن ودعني ويوسف على أمل اللقاء.

١٢

قبل أن أغادر الفندق برفقة صديقي يوسف، لا أدرى لماذا شعرت بحاجة قوية إلى قضاء بعض الوقت مع عبد الغنى. ناديته من حيث كان مشغولاً بواجباته الصباحية في تنظيف مدخل الفندق قبل الانتقال إلى الغرف والممرات. جلسنا معا ، حدثته عن يوسف وكيف كان عونا لي على تحمل ظروف العمل الصعبة في المنتجع. أخبرته أيضا عن رحلتي القصيرة برفقته لزيارة الزملاء القدامى. ثم نهضت من مقعدي لأعانقه مودعا وكأن شعورا ما في أعماقي يخبرني بأني لن أراه بعد اليوم. كان عناقي له حارا ومؤثرا رغما عنى لدرجة أن دموعا غلبتني جعلته يصطنع ضحكة أبوية وهو يربت على كتفي متمنيًا لي أن أذهب وأعود بسلام.

كنت ويوسف نعلم موعد قيام السيارة التي تذهب إلى المنتجع كل صباح؛ لذا كنا حريصين على أن نكون في المكان المحدد قبل الموعد. وصلنا في وقت مناسب وجلسنا متجاورين على مقعد واحد في منتصف السيارة. رحنا نتبادل الحديث الذي كان في أغلبه عن الظروف والأحوال التي مررت بها منذ غادرت المنتجع. رويت له عن

معاناتي في إيجاد فرصة للرزق لا تكتنفها مرارة القسوة والجهد العضلي الذي لم أكن معتادا عليه. ثم توقفت عن الحديث لأقول ليوسف:

- أعلم أنى أوجعت رأسك بحكاياتي المضحكة المبكية..

قال وهو يربت على فخذي بأخوة ومحبة:

- وهل نسيت أنني معتاد على سماع حكاياتك ؟؟؟

- ثم سألته :

- لماذا إصرارك على استضافتي ؟

أجاب بطريقة ماكرة :

- هي ليست استضافة يا صديقي. أنت ذاهب إلى المنتجع بناء على استدعاء من الإدارة. ....

- هل ثمة شيء يتعلق بقضية طردي من العمل ؟؟

قال وكأن صدره قد ضاق بتساؤلاتي الكثيرة:

- تريد معرفة التفاصيل ؟؟؟

أومأت برأسي علامة الإيجاب قبل أن أسأله:

- أريد أن أعرف ، هل مازالت نجوى في وظيفتها ؟

- لا ..... أجاب يوسف .

- هل لذهابها علاقة بقضيتي ؟

- أيضًا لا ....

قالها يوسف، ثم لاذ بالصمت، وهو يجذب مؤخرته إلى طرف المقعد، مسترخيا في جلسته وقد مال بنصفه الأعلى قليلاً جهة صاحبه صادق، الجالس بجوار النافذة ، استسلما للحظات صمت قطعها يوسف، الذي كان قد استراح تماما في جلسته ، قال :

- بالطبع تتذكر موظفة السكرتارية التي كانت قد كلفت بإنهاء طلب إجازتك ؟؟

- .. وكيف أنساها ... قال صادق ببرود .

استمر يوسف :

- عادت إلى مديرها، وأخبرته بما بدر منك، وكيف أنك رفضت بكبرياء أن تتقاضى أجرك الذي تستحقه. وشرحت انطباعها عنك من خلال دموعها أمام المدير. لم تتردد في القسم بأنها واثقة من براءتك ....

المهم أن المدير توقف طويلاً وهو يبحث عن تبرير لرفضك تسلم مستحقاتك المالية، ناقش هذا الأمر بالتحديد مع المديرين زملائه، وكان منطلقه في طرح هذا الموضوع هو التساؤل : إذا كانت الدناءة

نقيض الكبرياء ، فهل يمكن لشخص واحد أن يجمع في ذاته بين النقيضين ؟؟؟

اتفق الجميع على أن اجتماع الصفتين المتناقضتين في شخص واحد حالة نادرة ... وبمراجعة القصة بجميع جوانبها، كان الجميع يرجح احتمال البراءة، وليس العكس ، وكانت الحجة في ترجيح هذا الجانب دون سواه أساسها أن الإنسان الذي لا يستطيع التحكم في شهوته، يسيل لعابه بسهولة أمام دينار واحد ، فما بالك إذا كانت بضعة دنانير ، ويشعر أنها ثمن لمجهود بذله ؟؟

وكان إلحاح الفتاة المستمر هو العامل الرئيس الذي جعل مدير شئون العاملين يسعى إلى التأكد من مدى صحة قراره الذي اتخذه حين قرر طردك من العمل، فأتى بالشخص المسئول عن أمن المتجع، ووضعا معًا خطة دقيقة لمراقبة نجوى ومتابعة تحركاتها، وظلت الفتاة تتابع الموضوع وتتعمد إثارته كلما سنحت الفرصة، لدرجة أن المدير كان أحيانًا يبدي تبرمه من اهتمامها الزائد بقضية لم تعد مطروحة بعد أن رحل صاحبها الأصلي، وكل ما تبقى كما كان يردد في لحظات الضيق، هو مسألة شخصية بحتة تتعلق بحاجته هو إلى التأكد من صحة قراره بفصلك من العمل. والتأكد من المسلك الشخصي

لنجوى،خاصة أنها تعيش في المنتجع في إحدى الشقق الخاصة بالمديرين.

في تلك الأثناء كانت الفتاة قد علمت بدرجة الصداقة التي جمعتني بك قبل طردك من العمل، فكانت تأتى إلى لتتحدث معي عنك وعن نجوى. تحدثنا كثيرا، وطلبت مني الوقوف إلى جانبها في قضية لم تعد كما قالت تتعلق بشخص صادق عز الدين، بقدر ما أضحت تتعلق بالصراع بين الخير والشر. وحين أخبرتها بمعرفتي عنوانك في العاصمة، ازداد تواصلها معي، وطلبت مني ألا أهمل مشاركتها متابعة هذه القضية إلى أن تظهر الحقيقة، وبالفعل كانت تلقاني بين يوم وآخر لتخبرني بما استجد في موضوع مراقبة نجوى. يبدو أنها هي الأخرى قد أحبتك.

ضحك يوسف وهي ينتهي إلى جملته الأخيرة، ثم واصل حديثه:

وفي صباح أحد الأيام أرسل مدير شئون العاملين يطلبني. ذهبت إليه وأنا على علم مسبق بأنه يرغب في رؤيتي لأمر يتعلق بك .

قال حين دخلت عليه غرفة مكتبه :

- اجلس يا يوسف، وارِ لي كل ما تعرفه عن صادق ....

لم أتردد في الدفاع عنك، وكان صوتي هو الصوت الذي انضم إلى الفتاة للدفاع عن براءتك، وقبل أن انتهي من حديثي معه، إذا برجلين يدخلان المكتب بعد أن طرقا بابها الذي كان مغلقا منذ دخولي، كانا يرتديان ملابس غالية ، ويضعان على عيونهما نظارات من ذلك النوع الذي يستعمله عادة الأشخاص المهمون، وبعد أن رحب الرجل بضيفيه الذين جلسا على مقعدين متجاورين سألهما عما إذا كانا نزيلين من نزلاء الفندق، وقبل أن يوضحا هويتهما، استأذن أحدهما من المدير وهو يطلب مني مغادرة الغرفة، في حين قال الثاني :

- نود أن نتحدث على انفراد مع السيد المدير ...

نهضت من مقعدي مغادرًا إلى عملي في حديقة الفندق دون أن أعير ما حدث أدنى اهتمام. وبعد مرور أسبوع كامل، جاءتني الفتاة إياها إلى حيث اشرف على تنظيم موائد الحديقة لاستقبال حفل زفاف. جذبتني من يدي إلى ركن منعزل ، وأخبرتني بأن الرجلين الذين كانا في غرفة المدير هما من رجال الأمن المكلفين بالبحث عن نجوى، وأن حديثهما مع المدير في ذلك اليوم كان يدور حول بعض الأمور الخاصة بها. قالت أيضًا أن ما تسرب إلى أذنيها عبر الباب الخشبي المغلق الذي يفصل بين غرفة السكرتارية حيث تجلس مع زميلتيها وغرفة المدير،

يوحي بأن نجوى متهمة بقتل عشيقها وخنق طفلها الوليد والهرب تحت اسم مستعار، وأن العدالة تبحث عنها منذ سنوات بعد أن أدينت وحوكمت غيابيا، وأن هذين الرجلين مكلفان بالقبض عليها لتنفيذ الحكم فيها.

لم تمضِ سوى بضعة أيام بعد لقائي هذا بالفتاة إلا وانكشف كل شيء. انتشر الخبر بين العاملين، وعلم الجميع بأن نجوى لم تكن تعيش بينهم باسمها الحقيقي، وأن العدالة كانت تطاردها ثم طالتها أخيرا بعد أن ظلت التحريات الأمنية تتابعها حتى توصلت إلى وجودها بالمنتجع حيث تعمل وتعيش.

وذات صباح، وبعد أن كانت كافة الإجراءات القانونية قد تم اتخاذها، كان على نجوى أن ترحل في السيارة الحكومية الخاصة التي أتت لاقتيادها إلى السجن ، وقبل أن تمضي مع رجال الأمن الذين أحكموا الخناق حولها ، طلبت المثول أمام مدير شئون العاملين، وتمت الاستجابة لطلبها .....

وهناك اعترفت للرجل بكل ما في حياتها من جرائم وخيانات، ثم طلبت أن ترى العاملين والعاملات الذين يعملون تحت إشرافها، واتوا بهم جميعا إلى الغرفة التي كانت قد اكتظت عن أخرها

بعد أن سرى الخبر بين جميع المتواجدين في المنتجع بما فيهم النزلاء. وقفت على باب الغرفة وهي تتوسط الحشد المتجمع في الداخل والخارج، وراحت توجه كلامها للمسئولين والعاملين.

قالت أنها ارتكبت جريمة أخرى يجب أن تعاقب عليها،

وكان مما قالته "..... ربما تغفر لي السماء بعض ما ارتكبت من جرائم إذا ما غسلت الدنس الذي ألصقته بسمعة إنسان سيظل في وجداني إلى آخر لحظة مثالا للكبرياء النبيل .... لقد اتهمت أحد العمال بمحاولة اغتصابي ولكنه بريء ..."

ثم خنقتها العبرات، فلاذت بالصمت وهي تحدق في عيون الحاضرين قبل أن تستدير لتسلم نفسها للرجال الذين كانوا في انتظارها ، والذين اقتادوها على الفور جهة السيارة التي تنتظر عند الباب الخارجي.

بانت علامات التأثر الشديد على ملامح صادق، ولاحت في مقلتيه أطياف دموعٍ قال من خلالها : ".... ومضت نجوى .....؟"

استمر يوسف :

- في اليوم التالي استدعاني المدير وطلب مني دعوتك لمقابلته بعد أن كانت الفتاة قد أخبرته بمعرفتي لمكان إقامتك في العاصمة ...

- لماذا تعبث الأقدار بمصائرنا دون معنى..؟؟

قالها صادق وكأنه يخاطب المجهول، ثم تساءل باستخفاف:

- أين هي المفاجأة التي ستغير حياتي كما قال توفيق ؟

ضحك يوسف وهو يقول :

- أنت تعرف مبالغات صاحبك .

كانت السيارة في تلك اللحظات قد اقتربت من الطريق الفرعي المعبد الذي يربط المنتجع بالطريق الرئيس ، فبدأ السائق يقلل من سرعته تمهيدا للاستدارة وأيضا لالتقاط بعض العاملين والعاملات الذين كانوا ينتظرون على مسافات متباعدة من جانب الطريق .

قال يوسف :

- سنذهب مباشرة إلى غرفة المدير ، فالرجل ينتظر وصولنا ....

لم ينبس صادق إلى أن توقفت السيارة عند الباب الخارجي للحديقة الواسعة التي تحيط بالمنتجع ، فنهض من مقعده بعد أن كان يوسف قد سبقه ، وغادرا السيارة متوجهين إلى مكتب مدير شئون العاملين

حيث طرق يوسف على الباب طرقات خفيفة، وهو يمسك بالمقبض الحديدي ويضغط عليه بهدوء .

- تفضل .....

قالها الرجل حين سمع الطرقات ، ورأى الباب يفتح بأدب، فوجئ بيوسف الذي ألقى عليه تحية الصباح، ثم وقف إلى جانب الباب مفسحا الطريق لصادق الذي دخل في إثر صاحبه وتوجه نحو الرجل الذي نهض من مقعده مرحبا به. ابتسم وهو يشد على يد صادق ويدعوه للجلوس قائلاً :

- أتمنى أن يكون يوسف قد قام بواجب الاعتذار نيابة عنا ....

ابتسم يوسف وهو يرشف من فنجان الشاي الذي أحضره العامل المختص بخدمة مكتب المدير ووضعه على الطاولة المجاورة لمقعده ، في حين قال صادق:

- ما آلمني هو إحساسي بأني لم أستطع الدفاع عن نفسي .

- أرجو أن تنسى ما حدث.

قال المدير .....

- أتمنى لو استطعت ...

أجاب صادق ، ثم أردف :

- سأحاول رغم كل تسرب إلى أعماق روحي .
- القضية كانت مجرد خطأ تولت عدالة السماء مهمة تصحيحه.

قالها المدير وكأنه يؤكد اعتذاره عما حدث.

ابتسم صادق قائلا:

- والذين لا تسعفهم السماء بالتصحيح العاجل لأخطاء الآخرين في حقهم ؟

قالها دون أن ينتظر جواب .....

ضحك المدير وهو يقول :

- لا عليك ، هؤلاء يذهبون على الجنة ....

ثم انتقل إلى الحديث عن سبب استدعائه وإرسال يوسف للبحث عنه وهو يترك كرسيه خلف مكتبه لينتقل ويجلس على المقعد الخالي فيما بين صادق ويوسف. قال وهو يهم بالجلوس:

- أنت تدرس الإدارة على ما أتذكر؟

أجاب صادق :

- كنت .... وتوقفت عن مواصلة الدراسة منذ قررت السفر والمجيء إلى هنا. قال المدير:

- حسنا لقد اتفقت إدارة المنتجع على ترشيحك للعمل في مكتبي .....

بدا على صادق وكأن الأمر ليس به من المفاجأة أو الإثارة ما يستحق التعليق ، فقال دون أن يبدو عليه أدنى تأثر بما سيكون عليه وضعه الجديد في العمل :

- وماذا أيضا ؟

سأله الرجل :

- ألم يخبرك يوسف ؟

أجاب صادق وهو ينظر إلى يوسف مبتسما :

- لم يخبرني سوى بنهاية نجوى ، أما عدا ذلك ، فلم يخبرني بشيء .

استمر الرجل :

- ستظل هنا ستة شهور تقضيها مع الزميلات، قالها وهو يشير إلى الغرفة الملحقة بمكتبه، وبعدها، سوف تسافر في بعثة دراسية على نفقة المنتجع لدراسة إدارة القرى السياحية ....

قال صادق مندهشا :

- كل هذا لأنكم تأكدتم من براءتي ؟

- بالضبط ، بالإضافة إلى أن شروط البعثة لا تنطبق على أحد سواك ...

ثم قال لينهي المقابلة :

- حسب ما علمت أن زملاءك هنا أعدوا لك حفلاً ، ويمكنك الآن الذهاب على أن تبدأ العمل من صباح الغد ....

ثم استدار موجها حديثه إلى يوسف قائلا :

- خذه ليتسلم غرفته ....

كان الاثنان قد نهضا من مقعديهما ليغادرا الغرفة حين نطق الرجل بجملته وهو يعود إلى مكانه خلف مكتبه ، فخرجا متوجهين إلى المشرفة المسئولة عن سكنى العاملين ليطلبا منها مفتاح الغرفة المجاورة لسكنى يوسف، الذي قال وكأنه يريد أن يخبر صاحبه بأمر قبل أن ينساه:

- سيأتي توفيق بعد الظهر ليشاركنا حفل المساء .....

سأله صادق :

- وهل دعوته ؟ ثم من أين له أن يعلم بالحفل ؟

أجاب يوسف :

- شرحت له كل شيء ، واتفقنا على أن نفاجئك بكل ما عرفته الآن .

وحتى لا يترك مجالا للأسئلة الكثيرة، أردف وكأنه يجيب على كل ما يدور بذهن صاحبه :

- أخبرني توفيق أنه سيأتي حاملا معه حقيبتك وأشياءك الصغيرة .

كان توفيق بدوره قد ذهب إلى العمل ، وأخبر رئيسه بأنه لن يستطيع العودة بعد الظهر كما هي العادة ، لذا فما أن انتهى من توزيع وجبة الخبز الصباحية ، حتى عاد ليبدل ملابسه، وليستأذن في الانصراف عائدا إلى الفندق، استقبله عبد الغني بابتسامة صافية وهو يمد يده برسالة قال وهو يسلمه إياها :

- جاءت في بريد اليوم ، باسم الأستاذ صادق .

تناولها توفيق، واستطاع أن يتبين جهة الإرسال بمجرد أن وقعت عيناه على الأحرف الأولى المكتوبة على الغلاف، ثم وضعها في جيبه وهو يصعد الدرج لإحضار الحقيبة قبل أن يتوجه إلى محطة سيارات الأجرة لاستئجار سيارة توصله إلى المنتجع حيث ينتظره صديقاه كما كانوا قد اتفقوا ثلاثتهم في اليوم السابق. حين وصل إلى هناك كانت الشمس توشك على الغروب، أرشده رجل الأمن عند باب المنتجع

إلى أين يمضى عبر الممرات والطرقات حتى يلتقي يوسف الذي كان ينتظره عند باب قاعة الطعام الخاصة بالعاملين، والتي كانت قد أعدت بعناية ليقام فيها حفل الترحيب بعودة صادق.

التقى الاثنان وكأنهما صديقين حميمين منذ زمن بعيد رغم أنهما تعارفا فقط بالأمس.

قال توفيق وهو يهمس في أذن يوسف :

- عندي مفاجأة لصادق.
- ما هي ؟
- رسالة من حبيبته وصلت هذا الصباح .....

قال يوسف وهو يدعوه للتعرف على أقسام المنتجع وزيارة الشاليه الذي سيقضى فيه ليلته ضيفا:

- أرجوك..احتفظ بها.لا تخبره عنها حين تراه.

استغرب توفيق من النصيحة فِسأل بلا تردد:

- لماذا لا تريدني أن أعطيه إياها وأنت تعلم كم ينتظر هذه الرسائل ؟

أجابه يوسف:

- نحن نريده اليوم أن يفرح، ورسائل حبيبته تحمل له الكثير من الشجن. دعنا نحتفل به الليلة ونجعله يضحك ويرقص ويبتسم،

خاصة أن حفلنا مختلط. ستحضره بعض الزميلات وبعض النزيلات في المنتجع ممن سمعن بقصة نجوى معه.

ثم أضاف:

- يمكن أن تسلمه إياها غدا. لا نريد أن نفسد عليه فرحته هذه الليلة.

كان صادق في تلك الأثناء مشغولا بلقيا زملائه وأصدقائه الذين بدأوا يتوافدون على القاعة بعد أن فرغ كل منهم من عمله، بدا متألقا ذلك المساء وهو يعانق رفاقه بحرارة، وقسمات وجهه تحمل من الإشراق ما لم تحمله في يوم من الأيام ، كان يوزع ابتساماته على من يعرفه ومن لا يعرفه وهو يحتضن كل منهم بمحبة الشقيق العائد من رحلة اغتراب طويلة، وحين لمح يوسف وبرفقته توفيق استأذن ممن كانوا يلتفون حوله مهنئين واتجه إلى رفيقيه ليرحب بهما ويشكر توفيق على تجشمه عناء المجيء إلى المنتجع، ثم لم يلبث أن طلب منهما أن يسمحا له بتركهما بعض الوقت ليرحب بالزملاء والغرباء الذين جاءوا للتهنئة وللمشاركة في الحفل. لم يُضِعْ يوسف فرصة اللحظة مع صديقه، فقال وهو يمضي إلى خارج القاعة وفي إثره توفيق :

- سنتركك لترحب بالضيوف. لن نتغيب طويلاً. أريد لتوفيق أن يتعرف على معالم المنتجع .....

أومأ صادق برأسه وهو مشغول بحديث ضاحك مع ثلاثة من الزملاء كانوا قد وصلوا لتوهم.

قبل أن يكتمل وصول المشاركين في الحفل، كان يوسف وتوفيق يدلفان إلى داخل القاعة عائدين بعد أن أتما جولتهما السريعة بين ممرات المنتجع. لمحا صادق في وسط القاعة وهو يحدق في جميع الاتجاهات وكأن عينيه تبحثان عنهما. ثم لم يلبث أن توجه نحوهما مهللا وهو يقول:

- حسنًا ، لقد عدتما في الوقت المناسب ....

ثم أضاف :

- أرجو أن تحلا محلي في الترحيب بالمدعوين حتى أعود ...

سأله يوسف مندهشا:

- إلى أين.. أنت العريس هذه الليلة..والعريس لا يوكل مهمته لأحد ..

ثم ضحكوا ثلاثتهم قبل أن يقول صادق متأففًا وكأن شيئًا ما يضايقه:

- سأعود حالاً، أشعر بالاختناق. أحتاج إلى استنشاق بعض الهواء .

ثم مضى إلى الخارج في حين تولى يوسف الترحيب بالرفاق الذين ظلوا يتقاطرون فرادى وجماعات إلى أن اكتمل الحضور بعد حوالي

نصف الساعة وصارت القاعة ممتلئة عن آخرها بالمقاعد وبالمشاركين. بدأ كل منهم يستعد للقيام بدوره ، فراح العازفون الذين يعملون بالنادي الليلي للفندق يعدون آلاتهم الموسيقية التي أحضروها معهم، والعاملون بالمطبخ والمطعم والبار ، راحوا بدورهم يقسمون العمل فيما بينهم استعدادا لتقديم الطعام والشراب. كانت أجواء احتفالية رائعة رغم بساطتها، بدا الجميع سعداء وهم يتبادلون النكات والقفشات والضحكات، وكأنهم يسعون إلى الانفصال عن هموم الغربة وعناء العمل ولو لوقت محدود.

ثم تعلقت الأنظار بباب القاعة انتظارا لعودة صادق ، وطال الانتظار .

- مرت ساعة كاملة منذ خروج صادق لاستنشاق بعض الهواء ....

قال يوسف وهو يعبر لزملائه عن القلق الذي بدأ يساوره .....

ثم تتابعت الدقائق ، فأجزاء الساعة ، فساعة كاملة ، وضاق الحضور بالانتظار الطويل ، فبدأوا ينفضون كما أتوا ، واحدا وراء الآخر تاركين يوسف وتوفيق ، ومعهما قلة من الأصدقاء يعانون الحيرة والانتظار .

- ماذا حدث ؟ ..... إلى أين ذهب صادق ؟

ظل كل منهم يسأل نفسه دون أن ينظر لعقارب الساعة وهي تقطع الليل الطويل بدقات رتيبة تبعث على القلق والخوف والملل .....

- يا إلهي ، الساعة تقارب الخامسة صباحًا ونحن على هذه الحال .

قال توفيق لصاحبه بعد أن بقيا وحيدين في القاعة .....

كانت مخاوف مجهولة قد بدأت تنسج خيوطها حول مشاعر صاحبينا كلما تقدم الليل ، ولكن أحدهما لم يصارح الآخر بمخاوفه ، واكتفى يوسف بأن قال لرفيقه:

- هيا بنا إلى الشاليه ربما نجده ، أو نجد في الطريق من نسأله عنه .

كان الليل قد طوى ستائره التي تطبق على، وبدا الكون واجما وهو ينفض عن كاهله عباءة الصمت بعد سكون طويل، سار صاحبانا بخطوات متعبه في اتجاه الشاليه الذي كانت تتوسط المسافة بينه وبين الفندق مستطيلات من الخضرة يقع فيما بينها حوض السباحة الخاص بالنزلاء، وكان على العاملين الذين يقطنون الشاليهات أن يقطعوا هذا الطريق في ذهابهم للفندق وعودتهم منه ، وبالرغم من أن حوض السباحة كان محاطًا بأشجار عالية ومنسقة بعناية إلا إنها لم تكن من الكثافة بالدرجة التي تخفيه عن أعين المارة الذين يسلكون الطريق ...

ألقيا نظرات فضول عادية على حوض السباحة وما يحيط بهِ، فأثار انتباههما وجود ملابس ملقاة على أحد المقاعد المتناثرة فوق مسطحات الخضرة ....

فتوقفا عن السير وهما يتهامسان :

- أي مجنون أتى ليسبح في هذه الساعة المبكرة .

ثم همس توفيق :

- ولكني لا أسمع طرطشة الماء في الحمام .

أضاف يوسف :

- أشك أن يكون صاحب هذه الملابس قد نسيها وعاد إلى غرفته بالمايوه .

كانا في تلك اللحظات قد صارا عند أقرب نقطة إلى حوض السباحة ولم يعد يفصلهما عنه سوى أشجار عالية عارية الجذوع تتيح للناظر رؤية كل شيء خلفها بوضوح ..... وإذا بيوسف يصرخ :

- إنها ملابس صادق .....

قالها ثم تقدم نحو الحوض وخلفه توفيق الذي صدمته المفاجأة فآثر الصمت ، وحين وقفا على حافة الماء حيث توجد الملابس ، اكتشفا مدى ضحالة كمية الماء المتبقية في حوض الحمام. لم يشغلهما السبب الذي جعل مياه الحمام تتسرب أو يتم تفريغها أثناء الليل، ولكنهما

وقفا وقد تجمدت الدماء في عروقهما أمام المفاجأة المذهلة. إنه صادق عز الدين وقد شجت جبهته واستقرت جثته هامدة على أرضية القاع.
هل مات منتحرًا ؟
هل كان ينوي قضاء بضع دقائق في ماء الحمام ليستعيد حيويته قبل أن يعود للحفل، ولكن خانه اختياره للمكان الذي قفز منه فارتطمت رأسه بالمدرج ليكونً غرقه نتيجة لتهشم رأسه كما أثبت تشريح الجثة فيما بعد؟
مات صادق ومعه سره .....
المهم .... أن صاحبه، عبد الراضي، انتظر عودته لعدة أيام، ولما لم يعد في الموعد المتفق عليه جاء إلى المنتجع، وحين علم بما حدث، بكى طويلا دون أن أن ينتظر من يكفكف دموعه، ثم قفل عائدا إلى المقاول يطلب منه العودة إلى مهنته القديمة في هدم المباني وحفر القبور.

للتواصل مع المؤلف:

Sameconomist@yahoo.com